

المكتبة الثقافية

١٣٧

الرسول صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته ، ونفحات من هديه

الدكتور عبد الحليم محمود

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١٥ يولية ١٩٦٥

المكتبة الثقافية

١٣٧

الرسول

صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

لمحات من حياته ، ونفحات من هديه

الدكتور عبد الحليم محمود

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١٥ يولية ١٩٦٥

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - النجيلة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((يا أيها النبي ، أنا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ،
وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بان
لهم من الله فضلا كبيرا ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع
أذنهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا)) .

بِسْمِ الْعَدْلِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله عليه ، في كثير من سورته ، يقول سبحانه :

« يا أيها النبي ، أنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً » .

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولي فما أرسلناك عليهم حفيظاً » .

ويقول سبحانه :

« قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

ومن أجل هذه الصلة الالهية برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ، أرشدنا الله ، سبحانه وتعالى ، إلى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

بل أمرنا سبحانه ، أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهي عما نهانا عنه ، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :
« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ،
واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » .

أما السر في ذلك فهو :

١ - أن الرسول ، صلوات الله عليه : لا ينطق عن الهوى ، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ؛ ولقد أقسم الله ، تعالى ، على ذلك فقال سبحانه :

« والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » .

٢ - كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، في جميع أحواله : حركة وسكونا ، إشارة ونطقاً ، قلباً وقالبا : يمثل القرآن الكريم ، وقد كان صلوات الله عليه ، تطبيقاً للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً ، لقد « تَقَرَّان » - إذا أمكن هذا التعبير - أو - بتعبير آخر - لقد كان قرآنا .

ولقد وصفته السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، وصفا دقيقاً ، حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » .

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان
على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله ، سبحانه وتعالى ،
اذ يقول :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

٢

والحق اننا حينما نريد ان نكون صورة واضحة تامة عن
رسول الله ، صلوات الله عليه ، فان الطريق الوحيد لذلك :
انما هو الاحاطة بالقرآن احاطة واضحة تامة ؛ والاحاطة
بالقرآن على هذا النسق : ليست من السهولة بمكان ، بل
ليست بممكنة ، فالقرآن في كل يوم يتفتح عن معان جديدة
للانسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر ،
وهذه المعانى الجديدة : انسانية عامة أو فردية شخصية :
انما هى ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والعكس أيضا صحيح ، فان المتدبر المتأمل في الصورة
النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث
المعتمدة ، يفهم عن الرسول ، صلوات الله عليه ، كل يوم
جديداً ، وهذا الفهم : انما هو تفسير وايضاح لجوانب من
القرآن الكريم .

لقد امتزج الرسول ، صلوات الله عليه ، بالقرآن - كما

قدمنا - روحا ، وقلبا ، وجسما ، وامتزج القرآن به عقيدة
وأخلاقاً وتشريعاً ، فكان ، صلوات الله عليه : قرآنا يسير في
الناس ، وكان القرآن روحا ينتقل ، وكان قلبا ينبض ، وكان
لسانا ينطق بالهداية والارشاد .

ولقد كان ، صلوات الله عليه : حريصا كل الحرص على
أن يكون خلق الأمة الإسلامية : القرآن : لقد عمل لذلك طيلة
بعثته ،

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول ، صلوات
الله عليه ، من الأمة فيقول ، سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ،
خريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » صلوات الله وسلامه
عليك يا سيدى يا رسول الله .

ويتحدث ، صلوات الله عليه ، عن حرصه الشديد على
هداية أمته فيقول :

« مثلى ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادب
والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم
عن النار ، وانتم تفلتون من يدي » .

هذه هي صلة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بربه ،
وهذه هي صلته بأمته .

لقد ارتفع ، صلوات الله عليه ، الى السماء ، بل
وتجاوزها الى سكرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه
الكبرى . لقد ارتفع الى الأفق الأعلى ، وتجاوز بذلك

النهايات الكونية ، لقد كان فعلاً : أدنى من قارب قوسين ،
فانغمس في الأفق الأعلى ، وتلقى ، عن الله مباشرة ، كيفية
الصلة به ، وهي الصلاة ، ثم ... ثم انبسط الى الأرض
سراجاً منيراً ، رءوفاً رحيماً ، هادياً ، يدعو الى الله على
بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله ، صلوات الله
عليه ، الى السماء ، ثم عاد الى الأرض ، أقسم بالله ، لو
صعدت الى السماء لما حاولت العودة الى الأرض مرة
أخرى » .

بيد أن الرسول ، صلوات الله عليه : نبي ورسول ؛ فهو
متصل بالله دائماً : انه في السماء على الدوام ، وهو متصل
بالبشر ، يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة انه كان -
على حد تعبير القرآن : « بشراً رسولاً » فهو ببشريته مع
الناس ، وهو بسرّه مع الله ، انه مع الناس بارادة الله
وتوجيهه وأمره ، انه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، انه
مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعاني كلها يمكننا أن نقول : انه دائماً : مع الله ،
أو يمكننا أن نقول : انه - منذ اللحظة الأولى للبعثة - : لم
ينزل الى الأرض قط ، وإنما كان دائماً مع الله سبحانه
وتعالى ، فهو ، صلوات الله عليه ، يبيت عند ربه ، يقول
صلى الله عليه وسلم :

« لست كهيتكم : أبيت عند ربي ... »

٣.

« قل : انما انا بشر مثلكم ، يوحى الى » .
انه ، صلوات الله عليه : « بشر » ، وما يجول في خلد
مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله عليه
« بشر يوحى اليه » .
وما يتأتى قط : أن يوحى الله الى بشر الا اذا أصبح ،
وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية
روح .
ومنتهى القول فيه : انه بشر . . . وأنه خير خلق الله
كلهم .

٤

وبعض الناس ، حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه
الآية الكريمة :
« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى »
يقف عند كلمة : « بشر » فيحاول التركيز عليها ،
وتوجيه الانتباه كله اليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ،
فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ، ويبرزها ، ويندفع

في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعا ، لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى الى » ، بل انه في اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى الى » ويهملها أهمالا .

انه ليس بنادر في العصر الحاضر أن يجرا بعض الناس ، فيتحدث عن الرسول ، صلوات الله عليه ، وعن خطئه ، معاذ الله - في الرأي ، وعن اصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه أو في كتابته مستنتجا ومستنبطا وحاكما ، وينسى في كل ذلك :

« وما ينطق عن الهوى » وينسى في كل ذلك :
« يوحى الى » ، وينسى « لست كهيئتكم » ، وينسى :
« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » . .
وينسى أن بعض المسائل يمكن ، أن تكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله عليه - وهو على صواب دائما - إنما يتخذ الحل الذي يتناسب مع ما حسلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه ، سبحانه ، من الرحمة ، وهو الحل الذي يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام :
« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

والله ، سبحانه ، ببيانه ذلك في هذه المواضع التي كان من الممكن ، أن يقف فيها الرسول ، صلوات الله عليه ، مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك الي الرأفة الرحيمة . . .

ان الله ، سبحانه وتعالى ، ببيان ذلك ، انما يمدح الرسول ،
صلوات الله عليه ، ويبين ان منزع الرحمة انما هو الغالب
عليه ، صلوات الله عليه .

ولم يبلغ الله ، سبحانه ، اتجاهها عاما سار فيه الرسول ،
ولم ينقض قضية كلية أقرها ، صلوات الله عليه ، ولم ينف
مبدأ أثبتته رسوله : فما كان ، صلوات الله عليه ، يسير الا
على هدى من ربه وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له
بذلك حيث قال :

« وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله . . . »
وما فعل الله في كل ما تمسك به لمنحرفون ، وتمحك
فيه المتمحكون الا بيان رحمة الرسول ، صلوات الله عليه
ورأفته : اى ، أنه ، سبحانه ، كان يبين في هذه المواطن
فضله ، صلوات الله عليه ، وأنه — كما وصفه ، سبحانه — :
على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجة الربانية ،
وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز
عليها ولا يلتفت لسواها .

ولنضرب لذلك مثلا : ان الذين ديدنهم الجدل : يتحدثون
كثيرا عن قوله ، تعالى : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ؟ »
ويقدفون مباشرة بقولهم : ان العفو لا يكون الا عن خطأ .
ولهؤلاء نقول : ان الأساليب العربية فيها من امثال هذا
الكثير ، ومنه قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك
كل هذه المشقة ؟ .

غفاً الله عنك ، لم تُعْنِي نفسك في سبيل هؤلاء ؟ وكان
القائل يقول :

رضي الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الارهاق .
ان الآية القرآنية من هذا الوادي .

وضم هذه الآية الكريمة الى اختها التي في سورة
النور : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم ، فأذن لمن شئت
منهم » تجد المعنى واضحاً جلياً ، وهو ان الله ، سبحانه ،
فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله عليه ، في ان يأذن لهم أو
لا يأذن .

ليس النبي اذن معاتبا بهذه الآية - وحاشاه - بل كان ،
صلى الله عليه وسلم ، مخيراً فلما اذن لهم ، أعلمه الله ، انه
لو لم يأذن لهم لقمعدوا ، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وانه مع
ذلك لا خرج عليه في الاذن لهم ، انها آية مدح للرسول غاية
في الرقة . . . ومن غير شك قد صدر الاذن لهم عن قلب
رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة
الفياضة ، كان الرسول ، صلوات الله عليه ، يصدر في
أحكامه ، وما كان في ذلك الا متبعا ، لقوله تعالى : « وما
أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

وهكذا الأمر في كل ما يمارى فيه الممارون .

ومع ذلك فأننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً في الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى الى » لأهميته الكبرى ، فنقص القصة التالية ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها بن عطاء الله السكندري ، رضى الله عنه ، في شرحه لقصيدة ولي الله : « أبو مدين » رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد - رضى الله عنه ، وقال :

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟

فأشير الى شيخ كبير فى السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم : سمعته قال : « من زارنى لا تحرقه النار » .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول ، أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى ،

صلى الله عليه وسلم ، انما رأى « يتيم أبى طالب » ولو
رآه ، صلى الله عليه وسلم ، لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، اى
انه لم يره بالتعظيم والاكرام والاسوة ، واعتقاد انه رسول
الله ، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار ، لكنه رآه
باحترار ، واعتقاد انه « يتيم أبى طالب » : فلم تنفعه تلك
الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد ، رضى الله
عنه ، وانما نريد ، ان نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من
أن أبا جهل لم ير النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وانما رأى
« يتيم أبى طالب » .

هذه النظرة ، لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه
المؤمنون عنها .

والمؤمنون ، بحمد الله ، لا يقعون فى هذا الاثم متعمدين ،
وانما يتسلل هذا الاثم الى بعض النفوس فى صورة ،
لا شعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول ، صلوات
الله عليه ، وكأنه لا شىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب : أنه ، حينما يتحدثون عن البشرية ،
ويركزون عليها ، يعتبرون أنفسهم تقديمين متطورين ،
وفاتهم ، أن هذه النظرة لأبى جهل ، انما هى النظرة التى
يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقللوا
من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول
الا متابعين في ذلك زعيمهم الأكبر - في هذه النزعة - وهو
ابو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب
المسلمين انما هو بذلك : يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه
النزعة ، او يتابع ابا جهل وهم في ذلك ليسوا تقديمين ،
ولا متطورين ، وانما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم
الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت ، يتزعمهم فيها ابو الجهل
كله ، وابو الظلمة القلبية كلها !!!

ليس هناك اذن اجتهاد وخطأ وصواب ، وانما هناك
تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله ، مبينا
طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، ورافته الواضحة ؛
ويبين في الوقت نفسه : ان بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم
هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا اهلا لها ، لفساد
فطرهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة : ان الانسان يميل الى التركيز
على : « بشر » او على « يوحى الى » حسب قوة شعوره
الديني وضعفه ، فالذي لا ايمان له لا يرى الا البشرية ،
ومن ضعف ايمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على
البشرية كلما قوى الايمان ، ويزداد التركيز على :
« يوحى الى » . كلما ازداد الايمان ، حتى يصل الانسان
الى الا يرى او لا يكاد يرى الا : « يوحى الى »

صلوات الله وسلامه عليك ، يا سيدي يا رسول الله .

وهناك آذن طرفان يمثلان فريقين من الناس طرف :
« بشرا » أو ، « قل : إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى الى » ! و « رسولا » ، وبين الطرفين
يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا
وسموا .

وان مقياس الايمان قوة وضعفا ، مقياس درجة الايمان
الذى لا يخطيء ، إنما هو ما وقر في القلب أو غلب عليه ،
من « البشرية » أو من : « يوحى الى » ، انهما يمثلان
ما يوضع في كفتى ميزان

دع ما ادعته النصارى في نبيهمو
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

٦

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى ، أو لا يكاد
يرى ، الا : « يوحى الى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟ .
ما هي النظرة التى تنأى بنا عن : « يتيم أبى طالب »
لتقر بنا من : « الأسوة » ؟ كيف ينبغي ، أن تكون نظرة
المؤمن ، لرسول الله ، صلوات الله عليه ؟ !

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله ، صلوات
الله عليه ، يلزم لها أن يصل الانسان الى مستواه ، صلوات
الله عليه ، أو الى ما يقرب من مستواه ، وذلك لا يتأتى .

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن توجد
صورتين : أحدهما : جاهلية والأخرى : اسلامية والصورتان
لسيدنا عمر ، رضى الله عنه :

أما الصورة الأولى : فإنها : « يتيم أبى طالب » : كان
سيدنا عمر ، يراها قبل أن يهديه الله للاسلام . وأراد
سيدنا عمر ، أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق
كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله ، صلوات
الله عليه : « اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين إليك :
بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد
استجيبت لخير سيدنا ، عمر ، فهداه الله ، للاسلام ، ولأزم
الرسول ، صلوات الله عليه ، فناله من بركاته ، ومن خيره
ما هبأه لأن يكون الخليفة الثانى ، للأمة الاسلامية أجمع ،
وأن يعز الله الاسلام به فى حياة الرسول ، صلوات الله
عليه ، وبعد وفاته .

ان سيدنا عمر ، هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من
سبيل ، والذى كان اذا سلك طريقا سلك الشيطان طريقا
آخر : خشية منه ورهبة ، والذى نزل القرآن أحيانا
مصدقا ، لما رآه ، ان سيدنا عمر ، صاحب : « يا سارية
الجبيل » يرسم لنا صورة اسلامية لسيدته ، وحبيبه ،
وصديقه ، ونبيه ، ورسوله ، صلوات الله عليه .

ولكن هذه الصورة : هى صورة سيدنا عمر ، أنها
تتناسب مع مستوى سيدنا عمر ، وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا ، أبو بكر ، رضوان الله ،
وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على ، رضى الله عنه ؟ وماذا
كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟ !

ان الله ، سبحانه وتعالى ، يقول عنه صلوات الله عليه :
« وانك لعلى خلق عظيم » .

وما كانت كلمة السيدة عائشة ، رضوان الله عليهما :
« كان خلقه القرآن » الا تفسيرا لما اشارت اليه الآية القرآنية
الكريمة ، أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة ،
وتفسير السيدة عائشة لها ؟ ، أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ،
أستغفر الله واتوب اليه .

ولنعد الى الصورة التى حاول رسمها صاحب :
« يا سارية الجبل » ، لنعد اليها لنثبتها شارحين لبعض
حوادثها ، موضحين لبعض أنبائها ، وسنجعل الايضاح بين
أقواس .

بعد موت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سَمِعَ
سيدنا عمر ، يبكى ويقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جدّع تخطب
الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرا ، لتسمعهم
فحن الجدع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمنتك
كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتها : « يروى البخارى
ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبا وكتب السيرة » حادث

حنين الجذع » بعدة روايات ونُقل هنا أحدى روايات البخارى :

عن ابن عمر ، رضى الله عنهما قال : « كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يخطب الى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول اليه ، فحن الجذع ، فأتاه ، فمسح يده عليه .
بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :
« من يطع الرسول ، فقد أطاع الله » .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ، وإبراهيم » بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعدبون .

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله ، وأطعنا الرسولا » .
بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران ، أعطاه الله ، حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا (فليس ذلك) بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

(ان نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله عليه ، لم يحدث مرة واحدة وإنما حدث عدة مرات ، رواه

البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، فى ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا احدى روايات الامام البخارى :

عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي ، صلى الله عليه وسلم ، بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس (فاسرعوا وتكاثروا) نحوه فقال : مالكم ؟ »

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

قلت : كم كنتم ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشر مائة .
بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لئن كان سليمان بن داود ، اعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالابطح ، صلى الله عليك :
(سنتحدث ، فى فصل خاص ، عن الاسراء والمعراج) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لئن كان عيسى بن مريم ، اعطاه الله احياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك ، وهى مشوية ، فقالت لك الذراع :

« لا تأكلنى فانى مسمومة » .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

« أخبرنا سعيد بن محمد الثقفي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة قال : « كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مصلبة ، فأكل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، منها هو وأصحابه ، فقالت : اني مسمومة ، فقال ، لأصحابه : « ارفعوا أيديكم ، فانها قد أخبرت انها مسمومة » قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل اليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ما حملك على ما صنعت » فقالت أردت أن أعلم ، ان كنت نبيا لم يضرك ، وان كنت ملكا ، أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت » اهـ .

بأبي أنت وامي يا رسول الله ، لقد دعا نوح ، على قومه فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » .
ولو دعوت علينا بمثلها ، لهلكنا كلنا : فلقد وطئ ظهرك - تروى كتب السيرة ان عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه تبرزان - وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول الا خيرا ، فقلت : « اللهم اغفر لقومي ، فانهم لا يعلمون » (لقد دمی وجهه ، صلوات الله عليه ، وكسرت رباعيته في (غزوة أحد) . روى ذلك البخاري ومسلم . أما حديث :

«اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون» فقد رواه البيهقى
فى دلائل النبوة (بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك
فى قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا ، فى كثرة سنه ،
وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل .
بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس الا كفاء
لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح الا كفاء لك ما نكحت الينا .
ولو لم تواكل الا كفاء لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا
ونكحت الينا وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ،
وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعا
منك ، صلى الله عليك وسلم !!!
هذه صورة :

ومن الطريف : أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ،
استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول ، صلوات الله عليه ،
ولكنه رجل ، واسع الأفق ، رحب الخيال ، دقيق التفكير .
وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى
مطعن .

هذا الرجل هو : « هرقل » .

أتاه كتاب رسول الله ، صلوات الله عليه ، يدعوهُ الى
الاسلام ، فلم يهمل الكتاب ، ولم يمزقه ، وإنما قرأه فى عناية
وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب
الخطاب ، فسأل عما اذا كان بالمدينة بعض العرب الذين
يعرفون الرسول ، فقبل له : ان بالمدينة تجارا من مكة ،

يعرقون محمداً ، باعتبارهم من مواطنيهم ، قامر بأحضارهم ،
وكان منهم أبو سفيان :

وسأل هرقل ، عن اقربهم نسباً الى الرسول ، فكان
أبا سفيان ، فقربه منه ، وأدناه ، وقال لهم : انى سائله
عن أمور فان كذبنى فكذبوه :

يقول : أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا
على كذبا ، لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى ، لأنها واضحة من
النتائج التى انتهى اليها هرقل :

ان هرقل ، بعد أن انتهى من الأسئلة : بدأ — عن طريق
الترجمان — يقول ، لأبى سفيان ، على مشهد من الملاء
الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : —
سألتك عن نسبه :

فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل : تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال ، هذا القول قبله ، لقلت :

رجل يأتى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت : أن لا .

قلت : فلو كان من آباءه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت : أن لا .
فقد أعرف ، أنه لم يكن لينذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟
فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .
وهم : أتباع الرسل .
وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟
فذكرت : أنهم يزدون .
وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا .
وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .
وسألتك : هل يغدر ؟
فذكرت : أن لا .
وكذلك الرسل : لا تغدر .
وسألتك : بم يأمركم ؟
فذكرت : أنه يأمركم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ،
والصدق ، والعفاف ...

فان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمي هاتين .
وقد كنت أعلم ، انه خارج ، لم أكن أظن انه منكم ،
فلو انى أعلم ، انى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت
عنده لفسلت عن قدمه .

هذه الصورة التى كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن ان يكونها
او يكون مثيلات لها كل انسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ،
وكل انسان يصدق الله والحق : لا بد أن ينتهى بما انتهى اليه
هرقل ، من قوله : « لو كنت عنده لفسلت عن قدمه » ،
وانما يفسل عن قدمه ، من أجل : « يوحى الى » . اذ ان
من اصطفاه الله ، لرسالته ، جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد ان هذه النهاية التى انتهى اليها هرقل : انما هى
الشعار الدائم الذى لا ينتهى بانتقال الرسول الى الملأ
الأعلى ، فالرسول حى بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه ،
والفصل من قدمه الآن ، او بتعبير آخر : احترامه : انما هو
باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرا يتناسب
مع اصطفاء الله له ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد ركز هرقل ، نوعا ما ، على الصدق والاخلاص .
والواقع ؛ أن صورة الصدق والاخلاص ، كان يراها كل من
عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تغمره عصبية ،
أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والاخلاص ؛ كانت سمة من السمات التي اتصف بها الرسول ، قبل بعثته ، وبعد بعثته ، صلوات الله عليه ، لقد لازمته طيلة حياته ، لقد كان مجرد الخبر يلقيه ، صلوات الله عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة ، فهذا أمية بن خلف - عدو لدود - يتلاحى مع سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ - في حدة المناقشة - : لقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : انه قاتلك ، ويضطرب قلب أمية بن خلف ، ويسأل في لهفة وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقا ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر ، استقبط في يده ، وقال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق . وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل في وضوح بيّن ، حيثما أعلن رسول الله ، صلوات الله عليه ، إلى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تصدقونى ؟ » .

لقد كانت أجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التي لمسوها فيه ، لقد قالوا :

« نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط ... » .

وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مرسوم ،

ولم يؤد إليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وإنما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

إنها الصورة التي كونتها عنه ، صلوات الله عليه ، أم معبد الخزاعية . وهي صورة لا تخص الجانب المعنوي منه وإنما تتصل — على الأخص — بالجانب الظاهر ، وأردنا أن نثبتها هنا ، لنثبت بها : « هيئة » وظاهراً بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والاجلال ، أن الصورة التي نثبتها الآن مجرد وصف ، أنها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله عليه ، من مكة إلى المدينة ، يرافقه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، ودليلهم : عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة ، قوية الأخلاق ، عفيفة ، تقابل الرجال ، فتحدث إليهم ، وتستضيفهم . وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى شاة في ركن الخيمة ، فقال :

« ما هذه الشاة ، يا أم معبد ؟ » قالت :

هذه شاة خلّفتها التعب عن الغنم .

فقال ، صلوات الله عليه : « هل بها من لبن ؟ » فقالت :
هي أجهد من ذلك .

قال : « أتأذنين أن أحلبها ؟ »

قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي ان رأيت بها حلبا .
فدعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالشاة ،
فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :
« اللهم بارك لها في شاتها » .

فامتلا ضرع الشاة ، ودرء لبنها ، فدعا باناء لها كبير ،
فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد ، فشربت حتى رويت ،
وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ، صلى الله عليه وسلم ،
آخرهم ، وقال :

« ساقى القوم آخرهم » .

فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم
ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعزرا عجافا
هزلى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

« من أين لكم هذا ، ولا حلوبة في البيت » ؟

قالت : لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من
حديثه ، كيت وكيت .

قال : والله انى ، لأراه صاحب قریش الذى يطلب ،
صفيه لى يا أم معبد ؟

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضأة ، متبلّج (مشرق)

الوجه ، حسن الخلق ، لم تعب ثجلة (ضخامة البطن) ولم
تزر به صفة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ، في
عينيه دَعَج ، وفي أشفاره وطَف (طويل شعر الأجفان) ،
وفي صوته صحل (رخم الصوت) أحور ، أكحل ، أزج ،
أقرن ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سَطَح (ارتفاع
وطول) ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا
تكلم سما وعلاه البهاء ، وكان منطق خرزات نظم يتحدثون ،
حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر (لا عى فيه ولا ثثرة
في كلامه) ، أجهر الناس ، وأجمله من بعيد ، وأحلاهم
وأحسنهم من قريب ، ربة (وسط ما بين الطول والقصر)
لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين (تحتقره)
من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ،
وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يخصون به ، إذا قال استمعوا
لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه
في طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) ، لا عابث ،
ولا مفند (غير مخرف في الكلام) .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قریش الذي ذكر لنا
من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد ، لتلمست أن
أصحابه ، ولا فعلن أن وجدت لذلك سبيلا .

هذه هي الصورة التي حاولت أم معبد رسمها .
أما سيدنا عمرو بن العاص ، فانه يقول ، في صراحة
وصدق - عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضي فحنقته

العبرات ، وتحدثت مع ابنه عن أشياء عدة في صورة مؤثرة :
« ما كان أحد أحب الى من رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني
منه اجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لأنى لم أكن
أملأ عيني منه » .

V

والآن نريد أن نتساءل : ما هى الصورة التى نريد أن
نرسمها فى هذا الكتاب ؟ :
ونريد أن نقول : ان هذه الصورة التى نحاول رسمها ،
ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة ، انها صورة نحاول
جاهدين ، أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .
بيد أننا نعود فنقول : اننا ، لا نرسم صورة كاملة :
فالصورة الكاملة ، لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها ، ونحن هنا إنما
نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ، معترفين
بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة
لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون ، على ما فيها من عجز
وقصور ، ممثلة لبعض ما نكنه ، لسيد ولد آدم : من حب
وايمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ، يوم لا ينفع
مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التي نحاول رسمها ، فإنه لا يعزب قطعاً
عن بالنا قول امامنا البوصيري ، رضى الله عنه عن الرسول ،
صلوات الله عليه ، هذه الأبيات ، التي تعبر عن الحقيقة تعبيراً
صادقاً :

أهيا الورى فهم معناه فليس يرى
للقرّب والبعد فيه غير منفّهم
كالشمس تظهر للعينين من بعد
صغيرة وتكبر الطرف من أعم
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته
قوم نيام تسلسوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم

النسب الشريف

لم تزل في ضائر الكون تختار لك الأمهات والآباء
أبان مولده عن طيب عنصره ياطيب مبتدأ منه ومختتم
يقول ، صلوات الله عليه ، فيما رواه الامام مسلم :
« ان الله ، اصطفى من ولد ابراهيم ، اسماعيل ،
واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى
كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني
من بنى هاشم » .

وهو ، صلوات الله عليه : محمد بن عبد الله ، بن عبد
المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي . . .
ويصل نسبه الى سيدنا ابراهيم ، عليه السلام :
ولا نريد هنا ، أن نتحدث عن النسب الشريف من
ابراهيم ، عليه السلام ، الى محمد صلوات الله عليه ، وإنما
نريد أن نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين من قصي :

قصي

كان قصي عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة في
عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة . ورأى
قصي : ان قريشا : إنما هي الوارث الشرعي لاسماعيل

فهي فُرْعته (١) ، وصريح ولده ، فكلّم رجلاً من قُرَيْش
وَبَنِي كِنَانَةَ ، ودعاهم الى اخراج خزاعة وبنى بكر من
مكة ، وقال : نحن اولى بهذا منهم .

واخذ قصى في تدبير الأمر واحكامه ، ولم تكن المسألة
سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان
قتالاً شديداً ، وكانت الغلبة في النهاية لقصى .

ولما فرغ من نفى خزاعة وبنى بكر عن مكة ، تجمعت
اليه قريش - حسبما يروى ابن سعد في « طبقاته الكبرى »
- فسميت يومئذ : قريشا (٢) لحال تجمعها ، والتقرش هو :
التجمع .

ومما يروى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : أنه قال :
« كان قصى بن كلاب : أول ولد كعب بن لؤى ، ، أصاب
ملكا ، أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع
فيها ، فابتنى : دار الندوة : وجعل بابها الى البيت ، ففيها
يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح ، أو حرب ،
أو مشورة ، فيما ينوبهم ، حتى ان كانت الجارية تبلغ أن
تدرّع ، فما يشقّ درعها الا فيها ، ثم ينطلق بها الى أهلها ،
ولا يعقدون ، لواء حرب لهم ، ولا في قوم غيرهم ، الا في دار
الندوة : يعقده لهم قصى . ولا يُعذر (٢) لهم غلام الا في دار

(٢) قيل في سبب التسمية آراء غير ذلك .

(١) سلالته .

(٣) لا يختن .

الندوة ، ولا تخرج غير (١) من قريش ، فيرحلون إلا منها ،
ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، تشریفاً له ، وتيمناً
برأيه ، ومعرفة بفضلته ، ويتبعون أمره كالدين المتبع :
لا يعمل بغيره في حياته ، وبعد موته ، وكانت إليه الحجابة (٢)
والسقاية (٣) ، والرفادة (٤) ، واللواء (٥) ، والندوة (٦) ،
وحكم مكة كله ، وكان يعشر (٧) من دخل مكة سوى أهلها .
قال : وإنما سميت : دار الندوة ، لأن قريشا ، كانوا
ينتدون فيها : أي يجتمعون للخير والشر ، والندي : مجمع
القوم : إذا اجتمعوا (٨) .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش
بحى ، وضائق مكة ، بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر في
الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر في الحرم ، فأمرهم
قصى بقطعه ، وقال : إنما تقطعون ، لئلا تفسدوا ، ولئلا تفسدوا ،
بهلة (٩) الله على من أراد فساداً ، وقطع هو بيده ، وأعوانه ،
فقطعت - حينئذ - قريش ، وسمته : « مجمعا » لما جمع من
أمرها ، وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها - : دار الندوة ،

-
- (١) قافلة . (٢) سدانة البيت . (٣) سقيا الحجيج ،
(٤) اطعام الحجيج . (٥) للحرب . (٦) للمشورة ،
(٧) يأخذ منهم العشر . (٨) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ .
(٩) أي لعنته .

والحجابه ، والسقاية ، واللواء ، والرفادة - الى اكبر ابنائه
سنا ، وهو : عبد الدار .
وكان من ابنائه : عبد مناف .

عبد مناف

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف - : ان رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، : اقتصر عليه ، حين انزل الله تعالى ،
عليه :

« وأنذر عشيرتك الاقربين » .

فانه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع اليه بنو
عبد مناف ، تلبية لندائه ، قال لهم :

« ان الله ، قد امرنى ، ان أنذر عشيرتى الاقربين ،
وانتم الاقربون من قريش ، وانى لا املك لكم من الله ، حظا ،
ولا من الآخرة نصيبا ، الا ، ان تقولوا :

« لا اله الا الله ، فاشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم
بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم

وولد عبد مناف بن قصي ستة نفر ، وست نسوة ،
كان من بينهم ، هاشم بن عبد مناف ، واسمه : عمرو ،
وهو الذى عقد الحلف ، لقريش من هرقل ، من أجل أن
تختلف الى الشام ، آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب : ايلاف قريش ، وايلاف قريش
هو داينها وعادتها : لقد كان هو اول من سنّ الرحلتين ،
لقريش ، ترحل : احدهما في الشتاء الى اليمن ، والى
الحبشة : الى النجاشي فيكرمه ويهديه الهدايا . ورحلة
الصيف الى الشام والى غزة ، وربما بلغ : أنقرة ، فيدخل
على قيصر ، فيكرمه ، ويهديه الهدايا (١) .

ثم أصابت قريشا ، سنوات جذب عجاف ، ذهب
بالأموال ، فخرج هاشم الى الشام ، فأمر بخبز كثير ،
فخبز له ، فحمله في الفرائر على الابل ، حتى وافى مكة ،
فهشم ذلك الخبز : يعنى : كسره ، وثرّده ، ونحر تلك
الابل ، ثم أمر الطهاة ، فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة ،
فأشبعهم وكان ذلك اول الحيا بعد السنة التى أصابتهم ،
فسمى بذلك : هاشما .

وكان هاشم : رجلا ، شريفا ، طموحا ، ذكيا ، ولم يكن
يرضيه قط ، أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف في
مكة : من الحجابة ، واللواء ، والرفادة ، والسقاية ، والندوة
فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم
للقتال ، وعُبئت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم
للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولّى هاشم بن عبدمناف

(١) أنظر طبقات ابن سعد .

السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض الثراء ، وكان اذا حضر الحج قام في قريش ، فقال :

« يا معشر قريش ، انكم جيران الله ، واهل بيته ، وانه ياتيكم في هذا الموسم زوار الله ، يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، واحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله ، بذلك ، واکرمكم به ، وحفظ منكم افضل ما حفظ جار من جاره ، فاکرموا ضيفه وزوره .

وكان هاشم يأمر بحياض من آدم (١) ، فتجعل في موضع زمزم ، ثم يستقى فيها الماء من البئار (٢) التى بمكة ، فيشربه الحاج ، وكان يطعمهم اول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى ، والماء يومئذ قليل فى حياض الادم الى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس لبلادهم .

عبد المطلب

وولد هاشم بن عبد مناف : أربعة نفر ، كان منهم شيبة الحمد ، وهو : عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم ، الرفادة ، والسقاية ، فلم يزل ذلك بيته : يطعم الحاج

(١) حياض الادم : هى حياض من جلد . (٢) الابار .

ويسقيه في حياض من ادم ، الى ان حفر زمزم ، فأصبح ،
يسقى الحاج من زمزم ، ويحمل الماء من زمزم الى عرفة ،
فيسقيهم به .

وكانت زمزم سقيا من الله .

لقد أتى عبد المطلب في المنام مرات ، فأمر بحفرها ،
ووصف له موضعها ، فقبل له :
« احفر طيبة » .

فقال : وما طيبة ؟

فلما كان الغد ، أتاه ، فقال : احفر برة .

قال : وما برة ؟

فلما كان الغد أتاه ، وهو نائم في مضجعه ذلك ، فقال :
احفر المذنونة .

قال : وما المذنونة ؟

ابن لى ما تقول .

فلما كان الغد أتاه ، فقال : احفر زمزم .

قال : وما زمزم ؟

قال : لا تنزع ولا تدم تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين
الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب ، بمعوله ومسحاته ،
وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل الى الماء ، فكانت : زمزم .
وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكام قريش ،
وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح

المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة (١)

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان احسن قريش وجها . وامده جسما ، واحلمه حلما ، واجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة ، تفسد الرجال ، لم يره ملك قط الا اكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات (٢) » .

عبد الله

اما عبد الله ، والد الرسول ، صلوات الله عليه ، فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن ، لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« اما الحرام ، فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « انى لأعرف فيك نسك أبيك » .

واذا نظرنا اذن الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من ناحية والده وأسلافه ومن ناحية والدته وأخواله : فاننا نجدهم — خلقا وعراقة أصل — من أشرف بيوت مكة

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) انظر طبقات ابن سعد .

وأكرمها ، وأسمائها بشهادة المؤرخين جميعا ، فكان ، صلوات
الله عليه - كما يقول ابن هشام : -
« أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه
وأمه » .

مولده

لما حملت به أمه آمنة وهب ، كانت تقول :
« ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقله ، كما
تجد النساء ، إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت
ترفعنى وتعود . وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال :
« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى .
فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك
يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل ، ثم أمهلنى
حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى ، فقال :
« قولى : أعيده بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .
قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى ، فقلن
لى : تعلقين حديدا فى عضديك ، وفى عنقك ، قالت : ففعلت .
قالت : فلم يكن ترك على إلا أياما فأجده قد قطع فكنت
لا أتعلقه .

ويقول : أبو جعفر ، محمد بن على : « أمرت آمنة ، وهى
حامل برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن تسميه :

« أحمداً » .

ورأت أمه ، حين ولدته ، كأن نورا سطع منها أضاءت
له قصور الشام .

وولد صلوات الله عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد ،
لما أردته الحكمة الإلهية : من اخراج البشرية من الظلمات الى
النور .

كان ميلاده ، تمهيدا لذلك ، بمعنى : أن الله ، سبحانه
وتعالى ، في هذه الفترة التي سبقت الرسالة ، أحاط رسول
الاسلام ، بعنايته ، ورعايته ، ليكون اهلا ، لأن يحمل اعظم
رسالة ؛ ولأن يبشر بالدين العام ؛ ولأن يبين للانسانية اجمع
المعنى الصحيح ، فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله ،
وفما يتعلق بأمر سلوك ، كل شخص بالنسبة لنفسه ،
وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص في
المجتمع : حاكما كان أو محكوما ، زوجا كان أو ابنا ،
أو اخا ، أو رئيسا في العمل ، أو عاملا ، . . . الى غير ذلك
مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلکم راع ومسئول عن رعيته : فالامام راع ومسئول
عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ،
والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيته ، والخادم
في مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلکم راع ومسئول
عن رعيته » .

ومنذ ميلاده ، صلوات الله عليه ، بدأت تنزل جميع

أسس الضلال والانحراف . وترمز الى ذلك كتب السيرة النبوية ، برمز جميلة فتحدثنا :

« أنه في ليلة ميلاده ، صلى الله عليه وسلم ، غاضت بحيرى ساوى ، وتصعد ايوان كسرى ، وخبت نار الفرس »
أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة ، فان مصرها المحتوم ، وتحطيمها المؤكد ، قد تحدد مواعده بالسنين والأيام .

ان عند الشرك هذه ، والضلال ، والانحراف ، والظلم ، والاستعباد : بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأصبح أمر النور ، والهداية ، والرشاد ، وشيك الظهور والانتشار ...
وسمى المولود : « محمدا » .

أما سبب هذه التسمية ، فانه ، حينما جاء جده عبد المطلب ، ليراه قيل له :
« ما سميت ابنك » ؟
فقال : « محمدا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ، ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : انى لأرجو أن يحمده ، أهل الأرض كلهم ، وذلك حسبما يروى السهيلي ، لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب وقد ذكر حديثها على القيروانى ، فى كتاب : « البستان » .
قال : كان عبد المطلب ، قد رأى في نومه ، كأن سلسلة

من فضة ، خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في الشرق ، وطرف في الغرب ، ثم عادت ، كأنها شجرة على ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها . « فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه : محمدا ، وسمته أمه من قبل : أحمد ، فهو أحمد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .
ولقد تحدث الرسول ، صلوات الله عليه ، فيما بعد عن أسمائه ، فقال فيما رواه الإمام أحمد :

« ان لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحي به الكفر ، وأنا العاقب » .

وقال فيما رواه الإمام أحمد أيضا :
« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبي الرحمة ، ونبي التوبة ، والحاشر ، والمقفى ، ونبي الملاحم » .

وكان من عادة العرب ، أن يرضعوا أبناءهم ، خارج مكة ، فيرضعهم في الصحراء المنطلقة ، مكانا وجوا ، ليشبوا في صحة تامة ، جسما وعقلا ، ومن أمثالهم : « العقل السليم في الجسم السليم » .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء في مكة ، وهنا

نترك السيدة حليلة السعدية تتحدث عن الرحلة ، وعما صادفت فيها ذهابا وإيابا ، وعما رآته من بركات رسول الله ، صلوات الله عليه ، لقد كانت تقول :

« انها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وهى في سنة شهباء لم تبق لها شيئا » .

قالت : فخرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، وما فى ثدى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت (١) بالركب حتى شق عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله : محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها : « انه يتيم » وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم : وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت الا أخذت رضيعا غري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى ، لاكره

(١) جاءت بما تدم عليه .

أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله ، لأذهب
الى ذلك اليتيم فلاخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه
بركة .

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه
إلا أنى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعت
في حجرى ، أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب
حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما
كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى الى شارقنا تلك ، فاذا بها حافل ، فحلب
منها ، وشرب ، وشربت معه ، حتى انتهينا ربا وشبعا ،
فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمين والله
يا حليلة : لقد أخذت نسمة مباركة :
فقلت : والله ، انى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت اتانى وحملته عليها معى ،
فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم حتى
أن صواحبى ، ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك : أربعى علينا ، اليست هذه
أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

فأقول لهن بلى ، والله ، انها : لهى هى .

فيقلن : والله ان لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما اعلم
أرضا من ارض الله ، اجذب منها ، فكانت تروح على حين
قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب
انسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون
من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح
راعى بنت ابي ذؤيب ، فتروح اغنامهم جياعا ما تبض بقطرة
لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله
الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شبابا ، لا يشبه الفلمان ، فلم يبلغ سنتيه
حتى كان غلاما جفرا ولكنه ، صلوات الله عليه ، لم يمكث
عندها عامين فقط : ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به
الى مكة ، لتراه أمه وليراه جده ، ثم عادت به أشد ما تكون
حرصا عليه وعلى العودة به .

أخذت حليلة السعدية ، رسول المستقبل الى بادية
بنى سعد مرة أخرى وليس هناك من غرابة في أن يكون
رسول النور هذا : قد ملأ رحلتها من مكة الى البادية ،
بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

ان الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الانسانية منذ ان
وجدت الانسانية : تؤيد أن هناك اشعاعات عند بعض
الناس تضيف على المرافقين لهم بهجة ونشاطا . فلا غرابة
اذن أن تنشط حليلة وينشط زوجها ، وتنشط دوابهما ،

وإن تسير الرحلة في رخاء وأن يكون محمد في براءته
وطهارته ، وفي طفولته الباسمة ، ونضرتة المتألقة : هو سبب
ذلك كله .

ويملاً محمد بيت حليلة : بهجة وسرورا ويدب النشاط
في جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه ، ويبارك الله في
كل شيء فيه ، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة ، فيزيد
عطفها على محمد ، ويزيد حنانها عليه ، فينمو في جو من
الرحمة والود والحنان ، وينفرس كل ذلك في نفسه ، ويمتلئ
قلبه الناشئ ببذور من أسمى العواطف والشيم .
ويتحقق منذ طفولته - بل وإلى أن تنتهي به الحياة -
ما روى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، من أنه لما توفي
عبد الله ، قالت الملائكة :

« الهنا وسيدنا ، بقى نبيك يتيما » .

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير » .

نبي التوبة

صلى الله عليه وسلم

عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال — فيما رواه الامام
أحمد : ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال عن
نفسه :

« انه نبي التوبة » .

وللتوبة عند الرسول : صلوات الله عليه : وفي الجو
الاسلامى على وجه العموم ، شأن كبير ؛ ذلك أن التوبة إنما
هى : تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الاخلاص .
وأهمية الاخلاص اذا نظرنا الى الفرد ، او نظرنا الى
المجتمع : لا تخفى على أحد .

واذا نظرنا الى حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، من
زاوية التوبة ، والاخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح :
فان أول مايفجؤنا من ذلك : انما هو هذا الحادث الذى
ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع ، لرسول الله ، صلوات الله عليه ،
منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان ، صلوات الله عليه ، اذ ذاك في بادية بني سعد

عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى
الامام مسلم - اتاه جبريل ، فأخذه ، فضجعه ، فشق عن
قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علة ، فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من
ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون الى أمه - يعنى مرضعته : ان
محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك
وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ،
فقد روى الامام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن عساکر ،
عن أبى بن كعب : ان ابا هريرة ، رضى الله عنه ، كان جريئا
على ان يسأل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن
اشياء ، لا يسأله عنها غيره ، فقال :

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت في امر النبوة ؟
فاستوى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، جالسا وقال :
« لقد سألت أبا هريرة » .

انى لفى صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، واذا
بكلام ، فوق رأسى ، واذا رجل يقول ، لرجل : « أهو هو » ؟
قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه ، لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم
أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا

الى يثيان حتى اخذ كل واحد منهما بعضدى لا اجد
لاحدهما مسا .

فقال احدهما لصاحبه اضجعه ، فاضجعانى بلا
(١) ولا هصر (٢) وقال احدهما لصاحبه :
« افلق صدره » .

فهوى احدهما الى صدرى ففلقه ، فيما ارى بدون
دم ولا وجع . فقال له :

« اخرج الفل ، والحسد ، فاخرج شيئا ، كهيئة العلقه ،
ثم نبذها فطرحها فقال له :

ادخل الرافة والرحمة ، فاذا مثل الذى اخرج يشبه
الفضة ثم هز ابهام رجلى اليمنى ، فقال اغدو واسلم .

فرجعت بها اغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .
فلما جاوز ، صلوات الله عليه الخمسين اتاه آت ، بينما
كان فى الخطيم او فى الحجر مضطجعا بين النائم واليقظان ،
اتاه ، فشق عن صدره - حسبما يروى البخارى ومسلم -
واستخرج قلبه :

« ثم اتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا ، فغسل قلبى
ثم حشى ثم أعيد » .

(١) القصر : الاجبار .

(٢) الهصر : ثنى العمود من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم
يكرهانى .

وتكرر المعراج ، فتكرر شق الصدر : فعن أبي بن كعب - فيما رواه الامام أحمد ، والامام مسلم - أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ، ممتلىء حكمة وإيمانا ، فأفرغه في صدرى ، ثم أطبقه .
ولا يعني هنا لا في قليل ولا في كثير ، أن نجارى الماديين في جدلهم ، فيما يتعلق بشق الصدر : فالأمر أسمى بكثير من الممارسة في الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكان .
والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه الى المباحكات التى تشعر بضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .
لقد روت فى كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة ، هذه الحادثة التى توجه النظر الى عناية الله سبحانه ، وتعالى ، برسوله ، صلى الله عليه وسلم ، منذ طفولته المبكرة وان من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

ان الله ، سبحانه ، وتعالى - وقد شاءت ارادته ، منذ الازل ، أن يكون محمد : خاتم الأنبياء والمرسلين - أراد ، سبحانه ، أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكامل .
والانسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والاخلاص أو - بتعبير آخر -

بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملئوه سكينه .
ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملئوه رافة ورحمة ،
فكان صلوات الله عليه : رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .
ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، فملئوه إيماناً .
ثم شقوا عنه فملئوه حكمة .

وإذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هو المثل الكامل للإنسان الكامل ، فإن لنا فيه : أسوتنا ، والأسوة في شق الصدر إنما هي : التوبة .

وتوبتنا إلى الله اذن توبة نصوحاً : إنما هي بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين ،
بل وعن جو الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، هؤلاء
الذين يقول الله فيهم : « فغسى الله أن يتوب عليهم » .

إن الله يعبر في شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح
تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا في جو : (مع الذين انعم
الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) .

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصي :
حد فاصل ، وفصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة
الشيطان : سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة

أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن
الذين يقول الله في حقهم مخاطبا الشيطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وبمجرد أن ينزع الانسان سلطان الشيطان في صورة
من العزم المصمم ، وينطوى تحت لواء الله في صورة من
اليقين المطمئن ، فان الله سبحانه وتعالى ، يتولاه ويتكفل
به .

بل ان رعاية الله ، سبحانه وتعالى : تبدأ مع الانسان
منذ أن يبدأ في الاتجاه اليه ، سبحانه وتعالى ، مباشرة ،
وبدء الانسان في الاتجاه الى الله ، انما يكون بالاستغفار فاذا
بدأ الانسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له يقول الله تعالى :
« استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم
مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل
لكم أنهارا » .

وكلما ازداد الانسان اتجاهها الى الله ، واقبالا عليه ،
وتقربا منه ، وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

« من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب
الى ذراعا تقربت اليه باعا ، ومن اتانى يمشى اتيته هرولة » .

ان حياة النفوس والعمل الصالح : أهم عنصر لسعادة
الانسان في حياته الدنيا وسعادته في الحياة الآخرة . والله ،
سبحانه وتعالى ، يبين ذلك في أكثر من آية في القرآن
الكريم :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .
« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا : لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله ، فهو حسبه » .
التقوى والعمل الصالح نتيجتهم : السعادة وعناية الله ورعايته ، واللينة الأولى في أساس كل ذلك : إنما هي : التوبة ، أو هي : شق الصدر ، واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله ، بابها على مصراعيه أنه ، سبحانه وتعالى — فيما رواه الامام مسلم — « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

ويقول سبحانه :

قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا : إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له » .

وتوبة العوام إنما هي من الذنوب والآثام أما الخواص ، فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصي ، فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه ، ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين ، ويستغفرونه ، سبحانه ، ويتوبون إليه ممسين ، بل يستغفرونه ويتوبون

اليه تعالى في كل وقت وحين : خضوعاً له وخشية منه ،
وتقرباً اليه ، وخوفاً من الكبر الخفى ، أو الغرور المستتر ،
أو الغفلة التي قد لا يشعر بها الانسان .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، في ترقيه
الدائم ، وفي أنواره التي تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر الله
ويتوب اليه استغفار عبادة ، وتوبة انابة وقربى . يقول ،
صلوات الله عليه - فيما رواه الامام البخارى - :

« والله انى لاستغفر الله واتوب اليه في اليوم اكثر من
سبعين مرة » . ويقول ، صلوات الله عليه - فيما رواه
الامام مسلم - :

« يا ايها الناس توبوا الى الله واستغفروه ، فانى اتوب
اليه في اليوم مائة مرة » .

بيد ان ما نريد أن نؤكد ، لطلاب المعرفة الصحيحة
- عن عالم الغيب - ونؤكد لطلاب الايمان المطمئن : هو أن
وسيلة ذلك : انما هى : التوبة النصوح ، انها تستخرج حظ
الشیطان ، ثم تأتى بالسكينة . والتوبة النصوح : سبب
مباشر - بتوفيق الله - لملء القلب ايماناً ، بعد أن امتلأ
رافة ورحمة ثم انها السبيل لتنزل الحكمة - وهى المعرفة
الدنية - ارسالاً ارسالاً ، فيفيض بها القلب هداية
وارشادا : « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وان من التزم العبودية - واللينة الاولى فيها انما هى

التوبة : فان الله سبحانه ، يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علما .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ، صلوات الله عليه ، في سن مبكرة ، فكان ، صلوات الله عليه . كما تقول السيدة آمنة :

« والله ، ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة انه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شابا ، فتيا قويا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهاقت عليه وأراد الله ، ان يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخاري عنه ، صلوات الله وسلامه عليه انه قال : « ما هممت بشيء من امر الجاهلية الا مرتين » .

اما هاتان المرتان : فان سيدنا عليا ، رضى الله عنه : يتحدث عنهما - على ما يروى ابن كثير - فيقول : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« ما هممت بشيء مما كان اهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاها عصمنى الله عز وجل فيهما » . قلت

ليلة لبعض فتیان مكة - ونحن فی رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي :

« ألا تبصر لی غنمی حتی أدخل مكة أسمر فیها كما یسمر الفتیان » ؟
فقال : بلی

قال : فدخلت حتی جئت اول دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالغرابیل والمزامیر ، فقلت : ما هذا ؟
قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست انظر . وضرب الله علی أذنی ، فوالله ما أيقظنی الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبي ، فقال : ماذا فعلت ؟
فقلت : ما فعلت شیئا ، ثم أخبرته بالذی رأیت .
ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لی غنمی حتی أسمر ،
ففعل ، فدخلت ، فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذی
سمعته تلك الليلة ، فسألت :
فقیل : نکح فلان فلانة .

فجلست انظر ، فضرب الله علی أذنی ، فوالله ما أيقظنی الا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت :
لا شیء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت
بعدها لشیء من ذلك ، حتی أكرمنى الله ، عز وجل بنبوته .
هذا ما كان من أمر عبث الفتیان .

أما ما كان من أمر عباد الأصنام ، فإن القصة التالية
توضح الأمر :

عن ابن عباس ، قال حدثتني أم أيمن ، قالت : كانت
بنوانة صنماً تحضره قريش تعظمه تنسك له النساء ،
ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل
وذلك يوماً في السنة .

وكان أبو طالب ، يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يحضر ذلك العيد مع قومه ،
فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، حتى رأيت
أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ
أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم
جمعاً .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء
الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً ، فقالت له عماته :
ما دهاك ؟ قال :

« انى أخشى أن يكون بى لمم (١) » .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال
الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟
قال :

« انى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل أبيض

(١) من من الجنون »

يصيح بنى وراءك (١) يا محمد : لا تمسه » . قالت :

« فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته ، صلوات الله عليه ، شرحا مستفيضا وتوضيحا كاملا ، وتعبيرا تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من ان ذلك من علامات الانبياء :

« انه يوجد لهم قبل الوحي ، خلق الخير والركاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، مبيّنة لهذه القاعدة فيقول :

« وفي الصحيح : انه حمل الحجارة ، وهو غلام مع عمه العباس ، لبناء الكعبة ، فجعلها في أزاره ، فأنكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بأزاره .

ودعى الى مجتمع وليمة فيها ، عرس ولعب ، فأصابه غشى لنوم ، الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لأنه بعيد عن الشرك ، لم يسجد لصنم قط ، صلوات الله عليه وسلامه .

(١) ارجع وراءك :

الوحي

ما قبل الوحي - ان كتب السيرة : لا تحدثنا عن حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، قبل بعثته ، الا بالنزر القليل - القليل جدا - ويمكن تلخيص ذلك - في صورة مجملة - كما يلي :

بعد ان استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى الأربع سنوات : عادت به حليلة ، رضى الله عنها ، الى امه : آمنة بنت وهب ؛ فلما بلغ ست سنين خرجت به الى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن ، تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهرا .

ثم رجعت به الى مكة ؛ فلما كانت بالأبواء توفيت ، ودفنت هناك . ولم ينس الرسول ، صلوات الله عليه ، المكان الذى دفنت فيه امه ، فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « ان الله قد اذن لى فى زيارة قبر أُمى » . ثم اتاه فأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقليل له ، فقال : ادركتنى رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن ، على البعيرين اللذين كانا معهما :

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه . وعندما وصل مكة قبضه اليه جده : عبد المطلب ، وضمه ، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ، ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ؛ وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب ، حينما يرى ذلك : « دعوا ابني ، انه ليتونس منكأ » .

ورآه مرة ، عبد المطلب بعيدا عن رعاية أم أيمن ، فقال لها : « يا بركة ، لا تغفلى عن ابني ؛ فاني وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، وان اهل الكتاب : يزعمون : أن ابني هذا : نبي هذه الأمة .

ولما توفي عبد المطلب ، قبض أبو طالب ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا في جنبه ، ويخرج ، فيخرج معه ، وصب به أبو طالب صباغة لم يصب مثلها بشيء قط ؛ وكان يخصه بالطعام ، وكان اذا اكل عيال أبي طالب ، جميعا أو فرادى ، لم يشبعوا ، واذا اكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا أراد أن يغذيهم ، قال : كما انتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيأكل معهم ، فكان يفضل من طعامهم ، وان لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لمبارك » .

واستمر أبو طالب في رعاية الرسول ، صلوات الله

عليه ، لم يسلمه قط ، ولم يخذله ، الى أن توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة ، من حين نبيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة . ومما يروى ، بصدد أبى طالب : أن العباس قال : يا رسول الله ، أترجو لأبى طالب ؟ فقال ، صلوات الله عليه : « كل الخير أرجو من ربى » .

وفي هذه الفترة التى قبل البعثة : كان يتحاكم الى الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى الجاهلية قبل الاسلام ، ثم اختص فى الاسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم ، فى الخلاف الذى كان بين قريش ، بشأن وضع الحجر الأسود ؛ فانه ، حينما انتهوا ، فى بناء الكعبة ، الى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ؛ واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، فيكون هو الذى يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أول من دخل من باب بنى شيبة ، فلما رآوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ؛ ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت ،

من كل ربع من أرباع قريش ، رجل ، فكان في ربع بني عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني : أبو زمعة ، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان في الربع الرابع : قيس بن عدي ؛ ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيده في موضعه ذلك .

وفي سن الخامسة والعشرين : تم زواجه ، صلوات الله عليه ؛ وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منية ، تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد : امرأة حازمة ، شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى ، يومئذ : أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا . وكل قومها : كان حريصا على الزواج منها ، لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتنى دسيسا الى محمد ، بعد أن رجع في غيرها من الشام ، فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى أن أتزوج به ؛ قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟ قال : « فمن هى ؟ » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قالت : قلت : على ، قال : « فأنا أفعل » ، فذهبت ، فأخبرتها ، فأرسلت اليه : ان ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت الى عمها فحضر ، وتزوجها

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخديجة يومئذ : بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام القيل بخمس عشرة سنة .

وفي ظل الحياة الزوجية : عاش ، صلوات الله عليه ، عيشة هادئة وديعة ، فسر الله له بذلك ، ما كان يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى وهكذا نشأ ، صلى الله عليه وسلم ، طاهر النفس ، كريم الخلق ، مجانباً للمذمومات ، مجانباً للرجس :

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة : فكانت شرحاً وتفسيراً ، لما سبق أن تحدثنا عنه : من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه في طور الشباب : النضج الكامل ، والرجولة الرشيدة :

لقد كان صادقاً في حديثه ، عطوفاً على من حوله ، معيناً للضعفاء ، يكتسب ثقة كل من يخالطه .

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة ، رضوان الله عليها . ولكنها ، رضي الله عنها : أحبته لشيء آخر هو : السمو الروحي ، وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفاشية ، والاتجاه إلى الخالد من معالي الأمور .

إن عناية الله : رافقته ، ولاحظته ، ووجهته ، فكان خيراً زكياً ، وكان أمة وحده ، وسط هذا الضلال الديني والأخلاقي ، الذي كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم .

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .
ومن أجل ذلك سماه قومه : « الأمين » .

لقد كان أمينا على نفسه : فلم يسلمها الى مهاوى
الشرك او الشهوة ، او الرجس . وكان أمينا على الناس :
فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس في بعض بالنميمة ،
ولم يفتب .
وكان أمينا على الحديث اذا تحدث : فلا كذب ، ولا
مغالة .

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يدعها .
انه : « الأمين » أجمع عليها القرشيون ، وقالوها
حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود ، ووضعها في الكعبة ،
واوشكت الحرب أن تقع بينهم — كما قدمنا — ، ثم استقر
رأيهم على الاحتكام ، لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة ،
حينما ، رأوا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، وصاحوا :
انه : « الأمين » رضينا ، انه محمد !!!

الوحي : — ولقد حجب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار
حراء ، فيتحنث فيه ، أي : « يتعبد » الليالي ذوات العدد ،
قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى
خديجة ، فيتزود لمثلها .

كان ، صلوات الله عليه ، يغادر مكة منغمسة في الضلال ،
ليفتكف في غار حراء متعبدا ، حتى قالت العرب : « ان
محمدا قد عشق ربه » !!!

ولكن أما أن لهذا الضلال الذى يخيم على مكة أن
ينقشع ؟ !

أما أن لهذه الظلمة أن تنجلي ؟ !

أما أن لهذه الأصنام أن تتحطم ؟ !

أليس هناك أمل فى قبس من نور ، أو إثارة من علم ،
أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى
والرشاد ؟ !

ويلجأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الله ،
يستغيث به ، ويستعينه ، ويرجوه ، ويلج فى الرجاء ،
ويتدلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضى الأيام ، وهو فى كفاح المستميت ، وجهاد
المستبسل ، يتجه الى الله فى الصبح ، ويتجه اليه فى
الظهر ، ويتجه اليه فى الأصيل ، ويتجه اليه فى مغيب
الشمس ، ويتجه اليه حينما تلمع الكواكب .

انه مهاجر الى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من
انفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل
همسة من همسات الضمير :

ان حياته كلها لله ، ومع ذلك ، فان الأيام : تمر ،
والسنين : تمضى ، ولا يزال الظلام مخيما فوق أرجاء مكة ،
ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شارة الضلال وعلم
الانحراف . !

ويضاعف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، خضوعه

وتذلل ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاور الأمل الخوف
والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء الى الله ،
حتى أصبح ، صلوات الله عليه وسلامه ، فى النهاية ، وكأنه
صفاء من الصفاء ، ونور من النور . . . فلما استوت على
الجودى ولما كاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . . .
وفى ليلة من الليالى ، بينما كان الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، معتكفا فى غار حراء ، كعادته كل عام ، وفى شهر
رمضان المبارك . . . تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذى يفصل
بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الالهى ،
والاجتباء الربانى من جانب آخر ، أو - بتعبير آخر - ذلك
الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوة .

لقد جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ،
فقال :

« اقرأ » .

قال : « ما أنا بقارىء » .

قال : فأخذنى ففطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم
أرسلنى ، فقال :

« اقرأ » .

قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى ففطنى الثانية ،
حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال :

« اقرأ » .

فقلت : ما انا بقارىء ، فاخذنى فغطني الثالثة ، ثم
ارسلنى ، فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ،
اقرأ وربك الاكرم . »

فرجع بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرجف
فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، رضى الله عنها
فقال : زملونى ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع ، فقال ،
لخديجة ، واخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله ابدا ؛ ان لتصل الرحم ،
وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين
على نوائب الحق . . . » .

فانطلقت به خديجة ، حتى اتت به ورقة بن نوفل
ابن اسد بن عبد العزى بن عم خديجة لقد كان ورقة :
عربيا اصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الاغانى - : « احد من اعتزل
عبادة الاوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرا الكتب ،
وامتنع من اكل ذبائح الاوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ،
بل لعل اللغة العربية ، اذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من
معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الامام البخارى عنه :

« وكان أمراً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ، أن يكتب » .

وهو القائل هذه الآيات الشائعة في الأوساط المؤمنة :
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله وينودي المال والولد
لم تغن عن هـرمز ، يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاداً فما خلّدوا
ولا سليمان ، إذ دان الشعوب له
والجن والأنس تجري بينها البرد (١)
ولقد سئل عنه رسول الله ، صلوات الله عليه ، فيما بعد ، فقال :

« قد رأيته في المنام : كأن عليه ثياباً بيضا ، فقد اظن :
إن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .
وقد كان ورقة : معروفاً بالعقل الناضج ، والمعرفة
الواسعة ، والإخلاص المخلص ، وقد كان في فترة بدء
الوحي هذه : « شيخاً كبيراً قد عمى » أي أنه ، مر بالتجارب
الكثيرة في الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة ،
والعمل - ما استطاع - في سبيل الله .

(١) البرد : جمع برید ، وهو : الرسول .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول ،
صلوات الله عليه ، اليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن اخيك » .

فلما أخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خبر
ما رأى ، قال ورقة ، دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو : الناموس الذي نزل الله على موسى » .

قال ذلك في يقين جازم وفي ايمان مؤمن .

أما الأسباب التي دعت ورقة الى هذا القول ، فان منها
لا شك : معرفته بحياة الرسول ، صلوات الله عليه : لقد
كانت حياة طاهرة عفة : كان ، صلوات الله عليه ، عازفا عن
طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ، وكان بعيدا عن أن
يكون عبدا للدنيا .

ولقد سمع ورقة ، حديثا يعكس صورة صحيحة
مخلصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البريء عن
عنصر المفاجأة في الموضوع . ان الحديث لا يتسم بمنطق
مروئي ، ولا بتفكير مندبئير ، ولا بمحاولة ، ايا كانت ،
للتلبيس والزيف ، انها البراءة المطلقة :

لقد فاجأه الملك ، على غير انتظار ، وعلى غير توقع ،
وفاجأه في خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضائه ،
وفاجأه بأمر لم يكن له على بال :

« اقرأ » .

« ما انا بقارىء » .

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه ، فغطه حتى
بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له ، من جديد : « اقرأ »
وتكرر ذلك . . .

ورجع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « يرجف
فؤاده » .

لقد غمره الروع ، وما ان وصل الى المنزل حتى صاح :
« زملوني زملوني » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة ،
رضي الله عنها ، ما رأى ، ثم قال :
« لقد خشيت على نفسي » .

ان كل ذلك : برهان واضح على الصديق ، وعلى
الاخلاص ، فاذا ما اضيف ذلك الى ما يعرفه ورقة من
حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فان ثمرة ذلك :
التصديق والايمان ، بيد ان النور الذي غمر ورقة ، انما
كان اشعاع قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

حينما سمع ورقة ، اول آية من القرآن :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . »

لم يملك ان آمن بأن هذا الذي يتلى - انما هو : وحي
من السماء ، ان : « اقرا باسم ربك » . تنص على ان
القراءة : لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة
شخصية ، ولا باسم مصلحة اقليمية ، ولا باسم غاية مادية

أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيثة ، وإنما هي : باسم الله ،
وإذا كانت باسم الله ، فإنها تفيد الشخص ، باعتباره فردا ،
وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه : « وطننا » وتفيد
المجتمع الاسلامى العام ، بل وتفيد الانسانية جمعاء .

وإذا ما تجردت القراءة ، لله ، تعالى ، وكان هدفها
الأول والآخر هو : الله : مصدر الخير والنور ، كانت خيرا ،
وكانت نورا فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى ، القراءة
وحسب ، وإنما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتية الانسان
فى الجانب الايجابى ، وكل ما يدعه الانسان فى الجانب
السلبى .

ان هذه الكلمة الأولى : تريد أن تقول : « اقرا باسم
ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم
ربك أما اذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن
يكون ذلك ايضا باسم ربك ، ويكون معنى الآية فى النهاية :
جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسبابا وغايات لله سبحانه
وتعالى » .

وإذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى فى الجانب
الايجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن
تكون القراءة باسم الله فان الجانب السلبى - قد نزلت فيه
- فيما بعد - آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول
الله تعالى :

« ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وانه فسق »
واما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ،
فهو ايضا ، فسق ، لانه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم
يذكر اسم الله عليه ، اذن ، يجب الامتناع عنه .
اما الاقدام عليه ، فانه فسق يتفاوت في درجته : من
الرجس زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الاسلام منذ : « اقرا باسم ربك » : أي
منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الاخلاص ، وعلى
قمة الاحسان ، وفي خضم من التقوى ، وعلى السنام من
الصدق ، فما دامت الحياة كلها لله ، فليس هناك مجال
للکذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله
بالاعمال .

اقرا . . . والتربية .

ويقول الله ، تعالى ، في هذه الآية الأولى :

« اقرا باسم ربك الذى خلق » .

ولم يقل : اقرا باسم الله ، ذلك لانه اراد سبحانه ، منذ
البدء : ان يشير الى ان هذا الدستور الالهى النازل من
السماء انما هو : تربية ، انه ينزل باسم المربى ، وما دامت
هذه التربية الهية المصدر ، فهي اذن محكمة الاحكام كله ،
كاملة في جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى ، فيما بعد عن
هذا الدستور :

« كتاب احکمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

وقال الله تعالى :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : تنزيل من حكيم حميد » .

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق ، وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الالهى على التوالى مبينا ، لكل هذه الجوانب مفصلا لها ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، بين فى هذه الآية التى بين ايدينا : ان هذه التربية يجب ان تتقبل دون تشكك او تردد لانها من الذى خلق ، ذلك ان الذى خلق ، فكون كل خلية فى الجسم ونسقتها مع غيرها : لتؤدى ويؤدى المجموع وظائف معينة ، هذا الذى فعل ذلك : محيط علما بالانسان المربى ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق ، وانما هى تربية الخالق نفسه ، الذى احاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج اليه مخلوقاته ، وعرف الضر والنافع ، وعرف الخير والشر ، فتربيته اذن قيادة على علم ، وهداية على بصيرة ، وهى مر اجل ذلك كله : « تربية خالدة » . لا تختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ، لان الانسان : هو الانسان اينما وجد واينما كان ، لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب .

اقرا . . . والاخلاص .

حينما ، سمع ورقة هذه الكلمة الاولى . . . لم يملك ان آمن ، وماذا يمكن ان تقول : لشيخص تجرد الى الله ،

ویدعوك ان تتجرد اليه سبحانه ، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاها ، ولا زعامة ، ولا ملكا ، انه يريد ان تقرأ الانسانية كلها باسم ربها ، وان تقوم في كيانها كله على اساس من تربية ربها . ماذا يمكن ان تقول له : أيمن ان تقول له انك كذاب ، فما هو الصدق اذن ؟

ایمن ان تقول له : انك منافق ، فأین هو الاخلاص ؟ ان هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماعها الى الايمان .

اقرأ . . . والعلم .

ونعود اليها من جديد ، ونرى اشارتها الى معان اجملناها فيما سبق ، ونريد ان نفصل فيها بعض التفصيل : كانت : « اقرأ » . دعوة آمرة الى الثقافة ، الى العلم ، الى الفكر ، الى البحث المستفيض في السماء وفي الأرض ، وفي الجبال والبحار ، وفي كل ما خلق الله تعالى : من كائنات صغرت أم كبرت ، انها . . . اقرأ باطلاق ، انها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد . . . اللهم الا ان تكون باسم الله .

ولقد اتسم الاسلام ، منذ هذه الكلمة بالطابع العلمى ، كسمة تجاور السمات الأخرى ، التى سنتحدث عنها ، فيما بعد ان شاء الله تعالى :

« وقل رب زدنى علما » . ذلك احدى شعارات المسلم ، ومن استوى يوماه ، فهو مغبون ، ومن لم يكن الى زيادة فهو الى نقصان ، وهسل يستوى الذين يعلمون والذين

لا يعلمون ، وان مداد العلماء المتقين : ليوزن ، في ميزان
الخير والحسنات بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

ان الله سبحانه وتعالى ، قد امتن علينا في آيات كثيرة
من القرآن ، بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر ،
وسخر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء .
والامتنان الالهى بهذا معناه : دعوة صريحة للمسلمين ،
ان يستجيبوا الى التوجيه الالهى ، فيسخرُوا كل ذلك
بالعلم والمعرفة ، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة
في نفع الانسانية ، ولكن العلم والمعرفة ، في الاسلام :
لا يقتصران على الجانب المادى ، لان النظرة الاسلامية :
اوسع بكثير ، واعمق من النظرة الحديثة الاوربية التى
تقصر العلم على الجانب المادى .

ان العلم المادى : علم تسخير الكون ، يبحث عليه
الاسلام . ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم : تتمثل في
قوله تعالى :

« وان الى ربك المنتهى » .

وان : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا
المنتهى ، العلم . . . عبادة . واذا كنا - كمسلمين مدعوين
الى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره في سبيل الله ،
وتذليله رجاء مرضاة الله ، فنحن ، بهذا : متجهون الى الله ،
غير ناظرين الى هذا التسخير ، وانما الى المكون ، وبذلك :
يكون التسخير نفسه : عبادة : « فمن كانت هجرته الى الله

ورسوله : فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته
لدنيا يصيبها ، او امرأة ينكحها : فهجرته الى ما هاجر
اليه .

فالسيطرة على الطبيعة ، في الوضع الاسلامي الصحيح :
هجرة الى الله .

انها قراءة باسمه ، فهي داخلة في نطاق : « اقرا باسم
ربك » .

واذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد في أعمالك وفي
أقوالك . والعلم في الاسلام ، على الوضع الصحيح ، اذن :
عبادة ، حتى في الجانب المادي منه .

ولا يتأتى ، ولن يتأتى ، أن يقف الاسلام مقبة في سبيل
العلم ، وأن يتعارض الاسلام مع العلم الحديث .

ان مشكلة التعاون بين الدين والعلم : انما نشأت في
اوربا بعيدة كل البعد عن الروح الاسلامية ، التي حثت
الانسانية على التعليم ، والتي ولد المنهج العلمي الذي
يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها ، والتي انشأت على
أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل
يوم ، الكثير من انحاءها العميقة ، وما من شك في أن الحضارة
الاسلامية ، هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة ،
منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من
المجالات المختلفة .

ان المنهج العلمى الحديث فى أوربا : يرجع الى : (روجر بيكون) فهو الذى اذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ : (بريفولت) فى كتابه : « بناء الإنسانية » فيقول عن روجر بيكون : انه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية فى مدرسة : اكسفورد على خلفاء : العرب فى الأندلس ، وليس : لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده - الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن : روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب . هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضع المنهج التجريبي : هى طرف من التحريف الهائل : لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبي فى عصر : « بيكون » : قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا (١) .

ويقول : (بريفولت) أيضا :

لقد كان العلم : أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، تأليف محمد اقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود .

ان العبقريّة التي ولدتها ثقافة العرب في اسبانيا : لم تنهض في عنفوانها ، الا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد الى أوربا الحياة ، بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية ، بعثت باكورة اشعتها الى الحياة الاوربية (١) . اهـ .

واذا كان الاسلام ، هو الذي انشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعي الا يتعارض معه .

على ان مسألة التعارض بين الدين والعلم : انما هي مسألة وهمية ، اذا نظرنا الى حقيقة الامر .

وذلك ان العلم دائرته : المادة والمحس ، أما الدين ، فدائرته : (ما وراء الطبيعة) ، والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان .

ان ملاحظة العصر الحاضر : يتوهمون مشاكل ، لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضيف الألف عليها - وهي وهمية - صورة من ظلال الحقائق فيظن بعض لناس انها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع انه : لا اتحاد بين موضوعيهما .

(١) المصدر السابق .

// العلم في الاسلام اوسع دائرة

واذا اقتصرت اوربا على العلم المادى ، فان الاسلام :
لا يقف عند ذلك ، وانما يوجه الانسانية الى مصدر آخر
للعلم والمعرفة : هو القلب او هو الروح والبصيرة .

ان الاسلام يوجه الانسانية الى المعرفة الاشرافية ، او
الكشفية ، او الالهامية ، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمى
الحديث الى الاتجاه البصرى فى قوله :

« ان السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل اولئك : كان عنه

مستولا » .

فالسمع ، والبصر : هما اساس العلم المادى : علم
التجربة ، والملاحظة . اما القلب : فانه اساس العلم الالهامى .

ان الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم الى الملاحظة
والتجربة ، ويوجهه ايضا الى الاستشراف ، للهداية والنور
القلبى عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى ، والاخلاص ، وحب
الانسانية ، والمعاونة فى الخير .

واذا كان الاسلام : اوسع نظرة ، فى الجانب العلمى عن
الحضارة الحديثة ، وادق واشمل فانه يختلف معها اختلافا
جذريا حاسما فى مسألة الارادات والنوايا ، وفى امر الاسباب
والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والاهداف .

ان الحضارة الحديثة تقول : العلم ، لا صلة له بالاخلاق ،

أو تقول : العلم : لا أخلاقى والعلم فى نظرها : لا شأن له
بالخير والشر .

ولكن الاسلام : يجعل أسس العلم متسمة بالخير ،
ويجعل غايته : منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى
الى الله ، ويجعل منه عبادة لله . انه سبحانه يجعله باسمه
الكريم ، ان العلم فى الجو الاسلامى قراءة باسم الله .
ومن هنا كانت حضارة الاسلام : حضارة رحمة وهداية
لا حضارة تدمير وتخريب :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

تلك حقيقة فى الدين الاسلامى ، سواء نظرنا الى آيائه
أو نظرنا الى غايته .

اما الرسول ، صلوات الله عليه ، فانه :
(رحمة مهداة) .

الجهر بالدعوة وأثبات الرسالة

مكثت الدعوة الاسلامية سرية ثلاث سنوات ، ثم أمر
صلوات الله عليه بالجهر بها . فصعد على الصفا فقال :
يا معشر قريش : فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف .
فأقبلوا واجتمعوا . فقالوا مالك يا محمد ؟

قال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا يسفح هذا الجبل
أكنتم مصدقى ؟

قالوا نعم ، انت عندنا غير متهم . وما جربنا عليك
كذبا قط .

قال : « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني
عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة . . - حتى عدد
الأفخاذ من قريش - ان الله أمرني ان انذر عشيرتي
الأقربين . واني لا املك لكم من الدنيا منفعة . ولا من الآخرة
نصيبا الا ان تقولوا : « لا اله الا الله » .

واذا كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، قد طرح الثقة
على قريش برفعه علم الأمانة هذا في وجوههم فانه كان
مطمئنا واثقا من ان حياته هي من الصفاء بحيث لم يشبها
ما يجعل رأى قريش فيه قبيحا .

لقد كانت حياته . البراءة الكاملة . والطهر التام وهذا
ما دعاه الى ان يتحدى ، في صراحة وان يعلن في وضوح ،
ان حياته تثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والأخلاص - في كل من
يحيطون به ، لما كان في حاجة الى رفع علمه هذا ، فقد كان
يكفى الاخبار بانه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الاخبار كثيرون لما توفر فيهم من
الصدق والأخلاص لأنفسهم وللآخرين . اى لما توفر فيهم
من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن
ورقة وغيرهم بمجرد ان أخبرهم بأمره . آمنوا لما يعرفونه
فيه ولما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة - صفة

الإمامة - أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول :
سأله هرقل قائلاً : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول
ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا . وكان استنتاج هرقل :
اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .
وسأل هرقل أبا سفيان أيضاً عما إذا كان قد أثر عن محمد
غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي . فقال له هرقل : سألتك
هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر .

أما اثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة
الكبرى ، وهي القرآن ، وتحدى العرب به ، لقد تحداهم به
في عنف ، وتحداهم متدرجا بهم ؛ إذ طلب اليهم أولاً : أن
يأتوا بمثله فقال الله تعالى : « قل : لئن اجتمعت الانس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً »

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :
« أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله
مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم
صادقين . »

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بسورة من مثله :
« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين .
فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس
والحجارة ، أعدت للكافرين . »

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من
لدى الله .

أما عن حياته ، صلوات الله عليه : فإن القرآن تحدث
عنها من زوايا مختلفة ، لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس
فيها ، وتحدث عنها في اشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلا
عن ذلك ، نستنتج من الأخبار الكثيرة التي قصها عنه :
جوانب لا تحصي من السمو الأخلاقي الكريم :

١ - لقد تجرد ، صلوات الله عليه من كل مطمح دنيوى :
« قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على
الله ، وهو على كل شيء شهيد » .

٢ - ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، أربعين عاما ، فلم
يحدثهم بنبوة ولا برسالة : قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ،
ولا أدراكم به ؛ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » .
٣ - ويطلب اليهم القرآن الكريم : أن يتفكروا في أمر
صاحبهم هذا ، الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع
منهم :

« قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ،
ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، أن هو إلا نذير لكم ، بين
يدى عذاب شديد » .

ويشرح الزمخشري هذه الآية شرحا لطيفا فيقول
ما ملخصه :

إنما أعظكم بواحدة ، أن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ،

وهى . أن تقوموا لوجه الله خالصا ، اثنين اثنين ، أو واحداً واحداً « ثم تفكروا » فى أمر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به .

أما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين : لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح ، على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده : من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم : أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، ما به من جنة ، بل علمتموه : أرجح قریش عقلا ، وأصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير .

وإذا فعلتم ذلك كفاكم إن تطالبوه بأن يأتىكم بآية .
{ — ويصف القرآن الكريم جانبا من جوانب حياته ،
ويصف دعوته أيضا فيقول :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه يمينك ،

اذن لارتاب المبطلون ، بل هر : آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ؛ وما يجحد بآياتنا الا الظالمون .

واذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين ، فاننا نجد ان الآية الأولى تريد ان تقول : انه حتى لو فرضنا ان محمدا ، صلوات الله عليه ، كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا ، أو كان يخطه يمينه ، لاقتصر الارتساب على المبطلين ، فحسب . ذلك ان معانى الكتاب ومفاهيم الدعوة التى أتى بها ، والقواعد والمبادئ التى يبشر بها ، كل ذلك : آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ، ولا يجحدها الا الظالمون ، والظالمون فى كل آونة يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم .

هـ - ويتوج القرآن الكريم تحدته عن الرسول ، صلوات الله عليه ، بهذه الكلمة العميقة :
« وانك لعلى خلق عظيم » .

ان الدعوة الاسلامية : آيات بينات فى منطق الحق ، وفى منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا (أكثم بن صيفى) ، أحد حكماء العرب : ينتهج بفطرته السليمة ، هذا النهج من الاستدلال على صدق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بدعوته .

يذكر (الألوسى) انه لما ظهر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ودعا الى الاسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشا » ، فأناه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم - فيما قال - :

« أن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ،
وكتابه : يامر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وياخذ فيه
بمحاسن الاخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع
الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الراى
منكم : أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الراى ترك ما ينهى
عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :
« أن الذى يدعو اليه محمد ، لو لم يكن ديننا لكان فى اخلاق
الناس حسنا » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول ،
صلوات الله عليه ، هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن
ابى طالب ، رضوان الله عليه ، حينما سأل النجاشى عن امر
دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم الى الحبشة مهاجرين
اليها بسبب ما نالهم من تعذيب أليم ، وأرسل القرشيون
وفدا الى النجاشى ، فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن
العاص ، لرد المهاجرين الى مكة ، ليعذبوهم من جديد ، ولما
التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص :

« أنه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ،
ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن
ولا انت ، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم : من آبائهم ،
وأعمامهم ، وعشائريهم ؛ لترددهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا
(أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى أن من الحكمة ألا يسلم اليهم المهاجرين ، دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ...

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان ...

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه ، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ..

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا
الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا
نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا
علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك
ولما قرا عليه صدرا من سورة مريم بكى النجاشي ، ثم
قال :

ان هذا ، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكلة واحدة،
ثم التفت الى عبد الله بن ابي ربيعة ، وعمرو بن العاص ،
فقال لهما :

(انطلقا ، فلا ، والله ، لا أسلمهم اليكما) .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه المبادئ الاسلامية « أن
هذه المبادئ حقة ، وأنها : آيات بينات ، لا يخفى صدقها على
اصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات
الله عليه : انما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه
رسالة عيسى ، عليه السلام » .

وبعد ، فان سيرة الرسول ، صلوات الله عليه ، والمبادئ
الاسلامية : من أهم الرسائل التي ينبغي أن يتجه اليها
المبشرون بالدين الاسلامي لنشر الاسلام .

على أن هذا النهج : من الاستدلال بالدعوة على الصديق ،
وجعل النظر في الدعوة : احدي الوسائل التي تسلم - مع
غيرها من الملائكات - الى اليقين بصديق الداعي ، هذا النهج

الذى اتخذه هرقل والنجاشي : هو النهج الذى اقره الامام
الغزالي ، فانك اذا :

« أكثر النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم
الضرورى بكونه ، صلى الله عليه وسلم ، على أعلى درجات
النبوة » .

واعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى
تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :
« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .
وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :
« من أعان ظالما : سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله صلى الله عليه وسلم :
« من أصبح وهمومه هم واحد - هو التقوى - كفاه الله
هموم الدنيا والآخرة » .

فاذا جربت ذلك فى الف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك
علم ضرورى لا تمارى فيه » . بأنه صلوات الله عليه : على
أعلى درجات النبوة .

« ان النظر الى الدعوة الاسلامية فى نظر الامام الغزالي هو
أحد الوسائل التى تثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .
وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال ، العالم الاجتماعى
الكبير : ابن خلدون ، وهو يستوعب - فى نظرة عامة - الكثير
من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات ، وننقل هنا ما كتبه
خاصا بموضوع الاستدلال بالدعوة - حينما تكون الدعوة خيرا

محضا : كالدعوة الإسلامية - على صدق الرسول فيما يدعو
اليه ، يقول :

« ومن علامتهم أيضا :

دعائهم الى الدين والعبادة : من الصلاة ، والصدق ،
والعفاف ؛ وقد استدلت خديجة على صدقه ، صلى الله عليه
وسلم ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره الى دليل
خارج عن حاله وخلته ، وفي الصحيح :

أن هرقل ، حين جاءه كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ،
يدعوه الى الاسلام أخضر من وجد في بلده من قريش ، وفيهم
أبو سفيان : يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل : أن قال :
بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ،
والعفاف الى آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

« ان يكن ما تقوله حقا : فهو نبي ، وسيملك ما تحت
قدمي هاتين » .

والعفاف الذي أشار اليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء الى الدين ،
والعبادة ، دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج الى معجزة
فدل ذلك على أن ذلك : من علامات النبوة . . .

وشيء آخر له مجاله الكبير في إثبات الرسالة: ذكرته السيدة
عائشة ، رضي الله عنها ، في حديث : « بدء الوحي » وهو :
أن الله ، سبحانه : حبيب الى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ،

الخلاء فكان قبيل الوحى يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها
الصاخبة ، التى كان يرى فيها من الضلال الشئ الكثير . . .
يتركها ، ليخلو بفار حراء فريدا يتأمل ويرجو ويسجد
لله متعبدا ، خاشعا طالبا رضاه ، املا فى هدايته . كان
يتحنث فى هذا الغار : اى يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ،
قبل ان ينتزع الى اهله ، ويتزود ليعود من جديد الى
النسك ، والى العبادة .

لم يكن اذن يطلب مالا او ثراء او لذة مادية او جاها او مجدا
عند الناس انه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضع عزوفه عن زخارف الحياة وضوحا بينا
فى قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى
واحد عميق :

اما النبأ الاول فهو : ان عتبة بن ربيعة - وكان سيدا
فى قومه - قال يوما ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول
الله صلى الله عليه وسلم ، جالس فى المسجد وحده : يا معشر
قريش ، الا اقوم الى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا ،
لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ؟ .

وذلك : حين اسلم حمزة ، ورأوا اصحاب رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، يزدون ويكثرون . فقالوا : بلى
يا ابا الوليد ، قم اليه فكلمه .

فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فقال :

« يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت : من البسطة
فى العشرة ، والكمال فى النسب ، وانك قد اتيت قومك
بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت
به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض
عليك أمورا . . تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « قل
يا أبا الوليد اسمع » .

قال : « يا ابن أخى ، ان كنت إنما تريد بما جئت به من
هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا
مالا . وان كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع
أمرا دونك . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان
هذا الذى يأتىك رؤيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ،
طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه
ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : افعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من
الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم

يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون ،
وقالوا : قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه . . . »

ثم مضى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرأها
عليه ، فلما سمعها منه عتبة انصت لها ، وألقى يديه خلف
ظهره معتمدا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى
السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا ابا الوليد ما سمعت ،
فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف
بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .
فلما جلس اليهم قالوا : « ما وراءك يا ابا الوليد ؟ »
قال : « ورائي : أني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله
قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون
لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه
بغيركم . وإن يظهر على العرب فملكه وعزه عزكم ، وكنتم
أسعد الناس به .

قالوا : « سحرك والله ، يا ابا الوليد بلسانه .

قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : انه لو عرض على محمد ، صلى الله
عليه وسلم هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبول .

هذا القول ينقضه : ان عتبة كان مفوضا من زعماء قريش ،
وينقضه أيضا الخبر الآخر الذي ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وابو
سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث - أخو بني عبد الدار
- وابو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ،
وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وابو جهل بن
هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبي أمية ، والعاص بن
وائل ، ونبيه ومنبه ابننا الحجاج السهميان ، وأمие بن
خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم
قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخصصموه ، حتى
تعذروا فيه » .

« فبعثوا اليه ، أن اشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك
فأتهم » .

فجاءهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سريعا وهو
يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه « وكان عليهم حريصا :
يجب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم فقالوا له :

« يا محمد ، انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله
ما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على
قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الالهة ،
وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح الا
جئته فيما بيننا وبينك » .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رؤيا ، تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رؤيا - فربما كان ذلك ، بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما بى ما تقولون ، ماجئت بما جئتم به أطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وانزل على كتابا ، وأمرنى أن اكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والشراء ، وعن الدنيا كلها : تؤيده حياته ، صلوات الله عليه ، من أولها الى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . (هود : الآية ١٥ - ١٦) .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ،

ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » . (الاسراء :
الآية ١٨) .

« اعلموا انما الحياة الدنيا : لعب ، ولهو ، وزينة ،
وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد : كمثل غيث
أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما
وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما
الحياة الدنيا الا متاع الفرور » .

وعن جبير بن نفير ، رضى الله عنه ، قال : « دخلت
على عائشة ، رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
كان في كل ما يأتيه وفي كل ما يدعه قرآنا مطبقا ، ومن هنا
كان قول الله سبحانه وتعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « أتى اليه ،
صلوات الله عليه ، سبعون ألف درهم ، فوضعها - كما
يروى هارون بن رباب - على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ،
فما رد سائلا حتى فرغ منها » .

« وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الأعراب عليه
يسألونه ، وخطفوا رداءه ، فوقف رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه

العضاة : — شجر عظيم له شوك — نعماً لقسمته بينكم ،
ثم لا تجدوني بخيلاً ، ولا كذاباً ، ولا جباناً .
ويقول ، صلوات الله عليه ، لأصحابه :
« مالى وللدنيا ؟ » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم :
« عرضت على الدنيا فأبيتها » .

« ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما
يروى عن أنس ، رضى الله عنه : أحب أنسان الى الأنصار
والمهاجرين ، ولكنهم كانوا اذا رأوه لا يقومون له ، لما
يعرفون من كراهيته له : « اى القيام له » ويقول ، صلى
الله عليه وسلم ، لأصحابه :

ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها
فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ويقول :
صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه ، وهم جالسون حوله :
« ان مما أخاف عليكم من بعدى : ما يفتح عليكم من
زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول ، صلوات الله عليه : ما كان يتطلع الى
الدنيا فى مختلف جوانبها ، وهو يقرأ قوله تعالى :
« زين للناس حب الشهوات : من النساء والبنين ،
والقناطير المقنطرة : من الذهب والفضة ، والخيول المسمومة ،
والأنعام ، والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده
حسن المآب » .

عزوفه ، صلى الله عليه وسلم ، عن الدنيا اذن :
قضية هي ، من البداهة : بحيث تفجأ ، في النظرة الاولى ،
كل دارس لسيرته ، صلى الله عليه وسلم .

وحيثما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات ،
والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ،
وانما ترك وراءه مبادئ الحق التي أوحاها الله اليه ، والتي
مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل اقامتها
ونشرها ، ويكافح كفاحا لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ،
وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادئ ، ويشقون بأنهم
مكلفون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها واذاعتها بين
أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرا يتضوع رحمة ويشع نورا ،
مهما طالت القرون وتطاوت الأزمنة .

انه ، صلى الله عليه وسلم : هو تلك الصورة الحية
للتطبيق القرآني . فكان ، صلى الله عليه وسلم : عازفا عن
الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه
وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفيما
يدع مرضيا لله ، تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتما .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى
اخلاصه ، صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعنى إلا عدم تعلق

القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها
في سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم . والمسلم
مكافح دائما في سبيل الله ، ومن أجل مرضاته . وقد
أمتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ،
وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك في الخير واسعاد
الانسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الاسلام والعلم ، وعن
الاسلام وتسخير المادة ، وقلنا : ان ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله عليه ، عن الدنيا : من أقوى الأدلة
على صدقه ، وعلى اخلاصه .

الأسرار والمعراج

وترقى به الى قاب قوسين
ن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى
دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكرا
إذا أتته من ربه النعماء

يقول الله ، تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ، ليلا من المسجد الحرام
الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله : لنريه من آياتنا ؛
انه هو السميع البصير » .

ويقول ، سبحانه :

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما
ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد
القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الأعلى ، ثم دنا
فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده
ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟
ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة

المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

هذه هي الآيات القرآنية ، عن الاسراء والمعراج .
اما الأحاديث النبوية : فانها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا ، يكمل بعضها بعضها .

ونحن هنا ، لا يعنينا ، أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فانه معروف ، عادة للمسلمين ، وانما الذى يعنينا ، أن نذكر على الخصوص ، الجانب الأخلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن اسحاق - حسبما يروى ابن هشام -
لحديث الاسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :
« وكان فى مسراه ، وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة ، لأولى الألباب وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ومجمل الأمر : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بينما كان نائما : أتاه جبريل ، فأيقظه ، وخرج معه : فاذا أمامهما دابة بيضاء ، هى : البراق ، وركبها رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم ، وسارت الدابة ، وجبريل ، معه -
على حد تعبيره ، صلى الله عليه وسلم - : « لا يفوتنى ولا
أفوته » ، حتى انتهى الى بيت المقدس .

فوجد فيه ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فى نفر من
الأنبياء ، فأمهم ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
وصلى بهم ، ثم أتى باناءين : بأحدهما : خمر ، وبالأخر :
لبن ، فأخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اناء اللبن ،
وشرب منه ، وترك اناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحسرت عليكم
الخمر » .

وتروى كتب السيرة : أن رسول الله ، صلوات الله
عليه : أتاه ليلة الاسراء آت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء
زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ،
فأفرغه فى صدره الشريف ، ثم أطبقه .

ولما انتهى ، صلوات الله عليه ، من بيت المقدس : عرج
به الى السماء ، وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها
جميعها الى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ،
وهناك ، حيا الرسول ، صلوات الله عليه : ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات » .

وحياه الله ، سبحانه وتعالى :

« السلام عليك : أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وقال الرسول ، صلوات الله عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : أشهد إلا اله
إلا الله وحده : لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده
ورسوله » .

وفي هذه اللحظات الخالدة ، التي لا يتأتى أن توصف ،
فرض الله ، سبحانه وتعالى ، الصلاة على الأمة الإسلامية .
عن ابن عباس ، رضى الله عنه - فيما رواه الإمام
أحمد - قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظلمت
أمرى ، وعرفت : أن الناس مكذّبي » .
قال : فمر عدو الله : أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ،
فقال له أبو جهل كالمستهزىء :

هل كان من شيء ؟

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : نعم .
قال : ما هو ؟

قال : أنه أسرى بى الليلة .

قال : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟!

قال : نعم .

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث ،

إذا دعا قومه إليه !!

قال : أرايت أن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : نعم .
فانطلق ابو جهل الى قريش ، فقال :
هيا يا معشر بنى كعب بن لؤى .
قال : فانتفضت اليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا
اليهما .

فقال ابو جهل : حدث قومك بما حدثتني .
فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : انى اسرى
بى الليلة .

قالوا : الى أين ؟
قالوا : الى بيت المقدس .
قالوا : ثم اصبحت بين ظهرائنا ؟!
قال : نعم .

فاذا بالقوم بين مصفق ؛ وبين واضع يده على راسه
متعجبا للكذب !! زعم .

قالوا : وهل تستطيع ان تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم
من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « فذهبت
انعت ، فما زلت انعت حتى التبس على بعض النعت » .
قال : فجىء بالمسجد ، وأنا انظر ، حتى وضع دون دار
عقيل ، فنعته وأنا انظر اليه .

قال : فقال القوم : أما النعت ، فوالله ، لقد أصاب « .
وعن الحسن : انه فى يوم الحديث عن الاسراء : ارتد

كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس ، إلى أبي بكر ، فقالوا له :

هل لك : يا أبا بكر في صاحبك ؟!

يزعم انه : قد جاء هذه الليلة : بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة !

فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه .

فقالوا : لا ، ها هو ذاك في المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله ، لئن كان قاله : لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله ، انه ليخبرني : أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض ، في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا نبي الله ، أحسست هؤلاء القوم : أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال : نعم .

قال : يا نبي الله ، فصفه لي فاني قد جئته ؟

قال الحسن : فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فرفع لي حتى نظرت إليه ، فجعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصفه ، لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت : أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً ، قال :

صدقته ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .
قال ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأبى بكر :
وانت يا أبا بكر : « الصديق » ، فيومئذ سماه :
« الصديق » .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب : لهذا النبأ الجليل :
يسمعه قوم فلا يصل الا الى الجوانب الظاهرية منهم ،
فيأخذون فى الجدل الشكلى ، اكان ذلك فى اليقظة ؟ أم كان
ذلك فى النوم ؟ اكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح
فقط ؟!

وهل كان ليلاً ؟ أم كان نهاراً ؟
وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف
وزن الايمان فى النفوس .
ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل الى أعماق قلوبهم ،
فيتجهون ، فى صورة طبيعية ، الى مغزاه العميق ، والى ،
روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على
توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام
من هذه التوجيهات .

١ - لقد كان ، رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة
سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله الى العالم بين الفينة
والفينة : لتهدى الى الرشاد ، ولتقود الى الله ، ولتسمو
بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ؛ لتصل بالجديرين منهم
الى الكمال المرجو ، عن طريق الارشاد الالهى ، وكان

الكتاب الذى انزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو : القرآن :
خاتم الكتب ، واكملها ومهيمنها عليها .

ولان الرسول ، صلوات الله عليه : تخلق بأخلاق اكمل
كتاب ربانى ، فهو اذن : اكمل رسول ، صلى الله عليه
وسلم .

ومن هنا كانت امامته ، صلوات الله عليه ، بالرسول
والانبياء فى بيت المقدس ، ولانه ، صلوات الله عليه ، اكمل
رسول : كان من اجل ذلك : اقرب المقربين الى الله ، سبحانه
وتعالى ، لقد تخطى الارضين والسموات ، وتجاوز الكون
كله ، ووصل الى ما لم يصل اليه بشر ، بل الى ما لم يصل
اليه جبريل ، نفسه ، عليه السلام ؛ لقد وصل ، صلوات
الله عليه ، الى « قاب قوسين او أدنى » وكما ان المعنى الذى
يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الانبياء والرسول فى
السموات ، ومن ان الرسول ، صلوات الله عليه ، اخذ
يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الاخرى ، ويتجاوز
الانبياء واحدا بعد الآخر ، نقول : كما ان المعنى الذى يدل
عليه النبأ : معنى مكانى ، فانه ايضا - بل وبطريق اولى -
معنى روحى : اى ان الرسول ، صلوات الله عليه فى تساميه
الروحى فى كل لحظة من اللحظات : قد بلغ فى معراجه الى
درجات تجاوزت - فى روحانيتها - آدم فى سمائه الاولى ،
ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى ، عليهما السلام ، فى سمائهما
الثانية ثم تجاوزت يوسف ، عليه السلام فى سمائه الثالثة

... وهكذا حتى تجاوزت ، روحيا ، إبراهيم ، عليه السلام ،
في سمائه السابعة . ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون
كله الى سدرة المنتهى ، الى شجرة النهاية ، الى حيث لا يبلغ
ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول ،
صلوات الله عليه !!!

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا
والسموات السامية ومن الرحاب الالهى . . . ينزل بنا
منحدرا ، فيجادل في الاسراء والمعراج : اكان رؤية أم كان
يقظة . . .

استغفر الله ، واتوب اليه !!!

ان ذلك الجدل : ان دل على شيء ، فانما يدل على
ضعف الايمان في قلب المجادل .

٢ - واذا كانت التوجيهات السابقة : انما كانت ، لتدلنا
على مقام رسول الله صلوات الله عليه ، فنزداد بذلك تقديرا ،
وحبا ، واتباعا ، فان من هدى الله ، سبحانه وتعالى ،
وتوجيهاته في نيا الاسراء والمعراج : هذه الرمزيات الاخلاقية ،
التي تربط ربطا محكما ، بين الدين والاخلاق .

والواقع : ان الاخلاق في جو الاسلام : مرتبطة بالدين
ارتباطا ، لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى اساسه تقوم ، وعنه
تصدر ، انها جزء من الدين الاسلامي ، لا يتجزأ : مصدرها
هو مصدره : الهى ربانى .

وبعض الناس في العصر الحديث يريد ان يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم ان يجعل أساس الأخلاق : الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بئس ؛ فالضمير يُربى ويكوّن ، وتربيته ولونه : هما شكله ، ونزعتة ، واتجاهه ، الذي يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .
ان الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو اذن مقياس للأخلاق خاطيء .

وبعض الناس يريد ان يرجع بالأخلاق الى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة : كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة : إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .
والمصلحة العامة اذن ، كأساس للأخلاق : إنما هي : أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد ان يرجع بالأخلاق الى المصلحة الشخصية ، أو الى اللذة ، أو الى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوربي ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !!!

أما وارد الشرق الاسلامى ، أو بتعبير أدق ، وارد الاسلام الإلهى ، فان مقياس الأخلاق فيه : إنما هو : المبادئ الدينية ؛ إنما هو : آيات القرآن ؛ وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله ، سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها

القرآن في أسلوب عربي مبين ، وتحدث عنها نبأ الأسراء
والمعراج في صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة
النبوية الشريفة .

سار ، رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في مسراه ،
فمر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا
عاد كما كان :

فقال ، صلى الله عليه وسلم ، لجبريل ، عليه السلام :
ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم
الحسنة الى سبعمئة ضعف ، وما انفقوا من شيء فهو
يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما
رضخت عادت ، كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء .
فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتناقل رءوسهم عن الصلاة
المكتوبة :

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم
رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع
والزقوم ، ورضف جهنم !
فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة ، أموالهم وما ظلمهم
الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب في قدر طيب ، ولحم خبيث نىء في قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النىء ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من امتك : تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا ، فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل من امتك : يكون عليه امانات الناس ، لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض السنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت ، كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء !

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه : ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها !

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتا !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرقي ، واستبرقي ، وحريري ، وسندي ، وعبري ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفضتي ، وذهبي ، واكوابي ، وصحافي ، وأباريقي ، ومراكبي ، وعسلي ، ومائي ، ولبني ، وخمري ، فآتني ما وعدتني !!

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بي شيئا ، ولم يتخذ من دوني اندادا ، ومن خشيتي ، فهو آمن ، ومن سألتني فقد أعطيته ، ومن أقرضني جازيته ، ومن توكل على كفيته ، انني أنا الله لا اله الا أنا : لا أخلف الميعاد ، قد افلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد ، فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقد كثرت سلاسلي ، وأغلالي ، وسعيري ، وحميمي ،

وضريعى ، وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد
حرى ، فأتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل
جبار لا يؤمن بيوم الحساب .
قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ - ومن الثمار التى جنتها الأمة الاسلامية ، والتى
كانت من مقاصد اذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال
كل هؤلاء عن الأمة الاسلامية الناشئة :

لقد كفر - عند سماع النبأ - من كفر بعد اسلامه ،
وارتد من ارتد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا الا عاملا
من عوامل الضعف أكثر من ان يكونوا عاملا من عوامل القوة .
ان هؤلاء المكين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث
القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع
مظاهرها ؛ ان هؤلاء المكين الذين صبروا وصابروا ،
وتخلصت أنفسهم من جميع النزغات المادية ، ومن جميع
الاهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، ان هؤلاء المكين الذين
كان فى تقدير الله ، سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة
فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك ، يجب أن يكونوا مهينين ،
لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول :
ان هؤلاء المكين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية : اذاعة نبأ الاسراء والمعراج ،
لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ،
وعن ايمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، ايمان يصدق
الرسول ، صلوات الله عليه ، في كل ما يأتى به ، يصدق
بمجرد انبائه .

والمثل الأعلى في كل ذلك : انما هو سيدنا أبو بكر ، حينما
يعلن ، في غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟
فوالله ، انه ليخبرني : ان الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض
في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدق ، فهذا أبعد مما تعجبون
منه » .

هذا الايمان المطلق ، بالرسول ، هو الذي جعله ، صلوات
الله عليه ، يطلق على أبي بكر ، رضوان الله عليه ، «الصديق» .
و «الصدقية» مرتبة من مراتب الايمان ، لا ينالها ، الا من
جاهد نفسه جهادا تخطى به ايمان العامة ، وسما في ايمانه
درجة درجة ، الى أن أصبح قائما بالله ، متجها اليه ، عاملا
على مرضاته في جميع ما يأتى وما يدع .

والامة الاسلامية ، بأكملها : مطلوب منها بالنسبة ،
الى أخبار رسول الله ، صلوات الله عليه ، أن تكون على غرار
الصديق ، رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها الى أخباره ،
وتسلم نفسها الى انبائه ، مصدقة تصديقا كاملا : تصديقا
يحملها على العمل ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء

عن كل ما نهى عنه ، تصديقا ايجابيا يحقق للأمة الاسلامية
المجد الذى ترجوه ، تصديقا ينفى عن وجودها ، هؤلاء
الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء
الاسلام : فأخذوا يشكون الناس فى أقوال الرسول ،
صلوات الله عليه : فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين انهم من
المجددين ، وما هم فى الواقع الا أبواق من أبواق المستشرقين
والمبشرين .

ان هذه الأقلام التى تشكك فى السنة ، وفى الأحاديث
النبوية : ليست الا أقلاما مقلدة للمستشرقين : لا تحمل
طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، انما تحمل طابع التقليد ،
وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الايمان ، ويتنافى مع
الصديقية .

{ — اما ثمرة الاسراء والمعراج ، واما هدية الاسراء
والمعراج ؛ واما أعظم المنح الالهية فى الاسراء والمعراج :
أعظمها على الإطلاق ؟

اما النعمة العظمى ، والتجلى الالهى الأكبر فى الاسراء
والمعراج فانه : الصلاة .

ولا يتأتى لنا — عجزا وقصورا — أن نتحدث عن
الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على
الأمة الاسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى : الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى

الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

انها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل - ويجب ان يكون كاملا - عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة : لتخلص النفس الى المنعم ، حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !!!

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين انما هى : اقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك : هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة ، يقيمها الانسان ، كما أراد الله ورسوله : من أنجع الوسائل فى القرب من الله ؛ انها : البراق الذى يجتاز به المؤمن ، فى سرعة سريعة ، طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل اليه ، تعالى ، فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الاسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما : هى التى يجب أن نتنبه اليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

ان الله ، سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء الهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ ، سبحانه ، يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته ،

سبحانه ، الكبرى ، لقد اخذ سبحانه ، يتحدث عن :
رتب تسقط الأمانى حصى دونها ما وراءهن وراء
ثم . . . ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى
بنا فى سرعة سريعة دون سابق انذار ، ليفتح أعيننا على
مهازل ومهاوى من الشرك ، يضل فيها هؤلاء الذين هم :
كالانعام أو اضل سبيلا ، فقال : سبحانه ، بعد أن ذكر هذه
التجليات الالهية :

« أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » .
لقد أرانا سبحانه . بهذه الكلمات : البشرية المسكينة
فى ضلالها الدينى ، وفى انحرافها الذهنى .

ان كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث
عن : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أسرى به بجسمه
وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة ، أو مناماً :
انما هو بذلك ينحدر بنفسه ، مختاراً ، من التجلى الالهى ،
ليهوى بهامنتكسا الى جو اللات والعزى ، وينحدر بهامنتكسا
من جو سدرة المنتهى ، الى الجو المادى ، ومن مجالات النور
السماوى المتألىء الى ظلمة الجدل وزيف الممارسة فى الدين .
فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار مبتعدين عن
الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين : « ربنا لا تزغ قلوبنا ،
بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، انك انت
الوهاب » .

الهجرة

يا لجلال الايمان وثباته وقوته !!

ان التاريخ : نادرا ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصه ،
لله ولرسوله . هجرة الى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل
المهاجر عما اذا كان مهجرة سيستقبله مرخبا ويؤويه في الفة
أم انه سيقابله بالجفوة والعداوة . هجرة لم يهد لها الجو من
قبل ، ولم يعبد لها المكان . . . ان التاريخ : لا يكاد يحدثنا
عن الهجرة بالايمان ومن أجل الايمان .

ولكن التاريخ الاسلامي حافل بهذه الأنواع من الهجرة ،
فانه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الايمان ، وكثر الحديث عنه ،
ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من
قبائلهم ، فعذبوهم ، وسجنوهم ، وأرادوا فتنهم عن دينهم ،
وتحمل المؤمنون العذاب ألوانا في سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، شفقة عليهم ورحمة :

« تفرقوا في الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار اليهم : الى الحبشة ، فهاجر اليها في بادىء الأمر

طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردا .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم الى مكة معتقدا أن الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا الى مكة اشتد عليهم قرومهم ، وسطت بهم عشائريهم ، ولقوا منهم أذى شديدا .

فأذن لهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالخروج الى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا . ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان ، رضى الله عنه ، ، مخاطبا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة الى النجاشي ولست معنا ؟ !

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون الى الله والى ، لكم هاتان الهجرتان جميعا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النساء ثمانى عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين
مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ،
فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة ، مزودا بالهدايا
الى النجاشي ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين الى مكة ، لينزلوا
عليهم العذاب من جديد .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » .

ولم يفلح الوفد وعاد الى مكة بخفي حنين .
ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثأرتها ، وزاد غضبها ،
واقدمت على عمل يتنافى تنافيا تاما مع الانسانية . فقد
كتبوا كتابا تعاهدوا فيه على ألا يناكحوا بنى هاشم
ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم . وكان الكاتب للصحيفة هو :
منصور بن عكرمة العبدي ، وكان من تقدير الله تعالى :
أن شئت يده .

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد ، حصروا بنى هاشم
في شعب أبي طالب .

وكان ذلك في أول المحرم ، سنة سبع من نبوته ، صلوات
الله عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لا يخرجون
إلا من موسم الى موسم ، حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرا ،
وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعا
ومسغبة فلا ترق قلوبهم ولا يتأثرون واستمر ذلك سنوات
ثلاث .

وبينما هذه الامور ، من الشدة والقسوة ، تجري تحت

سمع الرسول وبصره ، كانت قريش ترسل له ، صلوات الله عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلا .

وما ترك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الدعوة قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهاراً ، وكان يدعو في كل لحظة من لحظاته . يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهلياً أسلم يقول :

« رأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بصر عيني ، بسوق ذي المجاز ، يقول :

« يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » . ويدخل فجأجها والناس متقصفون (١) عليه . فما رأيت أحداً يقول شيئاً . وهو لا يسكت يقول :

« يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن في الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، عشر سنين ، يوافق المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات

(١) يجتمعون ويترحمون »

ربه ، ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى انه يسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا ايها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، واذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة » . واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله عن الدعوة الى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والايذاء : حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه ، وكان الإسراء والمعراج ، وارتد من ارتد ، وثبت من ثبت . وكان حادث الاسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفاصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على ايمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الاسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الاسلام في هذه الفترة - فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة - مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على ايمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى وان كان الرسول ، صلوات الله عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فانها مع ذلك : كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الاسلام ونشر دعوته .

واذا كانت المعسكرات قد تحددت في مكة ، واذا كانت الفترة من الاسراء الى هجرة الرسول ، صلوات الله عليه :

كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب ، فان الاسلام في هذه الفترة : لم يكن قد وقف راكدا ، بل بالعكس قد هيا الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول في معسكره المكي كل عناصر الخير بمكة ، ولم يبق فيها - في الطرف المقابل - الا من لا ينحسم امره عن طريق الدعوة ، وانما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة اليها من جديد في ظروف مهياة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيا الله الامر لانتشار الاسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد في الطبقات :

« أقام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة ما أقام ، يدعو القبائل الى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة ، بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ، ويشتم ، حتى أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعد ، فساقه الى هذا الحى من الأنصار ، لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم الى الله ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به في العام القادم .

ولما عادوا الى المدينة ، بشروا بالاسلام في قومهم ، فأسلم من أسلم ، وكثر في المدينة الحديث عن الاسلام . فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا

الرسول - كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم - : « على ألا
نشارك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ،
ولا نأثى بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في
معروف » .

قال : « فإن وقَّيتم فلَكم الجنة ، ومن غَشِيَ من ذلك
شيئاً كان أمرد إلى الله : أن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .
إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، إنها بيعة على العمل
بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر إلى الدقة في قوله ولا نعصيه في معروف . أنه لم
يقُل : ولا نعصيه ويسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله : « في
معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ، فستقر -
لا مناص - بأنها وثيقة الهية .

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاق أخرى ، وبوجوه عليها
نور الإسلام ، وبقلوب انغمست في محيط الرحمة ، واخذوا
يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين .

ثم . . . ثم عادوا في العمام التالى ، وهم سبعون أو
يزيدون رجلاً أو رجلين ومعهم امرأتان ، والتقوا برسول
الله صلوات الله عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس
معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن
عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج أنكم قد دعوتهم محمداً
إلى ما دعوتهموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ،

يمنعه ، والله ، منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على
قوله ؛ يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس
كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحسب
واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة ،
فارتأوا رأيكم ، واتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ماؤ منكم
واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وأنا والله
لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء
والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم .

قال : وتلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عليهم
القرآن ، ثم دعاهم الى الله ورغبهم في الاسلام وذكر الذي
اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالایمان والتصديق ، ثم قال :
يا رسول الله ، بايعنا فنحن أهل الحلقة (١) ورثناها كابرا
عن كابر . . .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول
الله ، صلى الله عليه وسلم : أخفوا جرسكم (٢) ، فان علينا
عيونا وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون

(١) أهل السلاح .

(٢) كلامكم وصوتكم .

كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم
فتفرقوا الى محالككم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ،
ثم قال : أبسط يدك يا رسول الله ، فكان أول من ضرب
على يد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - فيما يقال - :
البراء بن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول
الله . صلى الله عليه وسلم :

ان موسى أخذ من بنى اسرائيل اثني عشر نقيبا ، فلا
يجدن أحد منكم في نفسه ان يؤخذ غيره ؛ فانما يختار لي
جبريل .

فلما تخيرهم قال للنقباء : « انتم كفلاء على قومكم ككفالة
الحواريين لعيسى بن مريم ، وانا كفيل « على قومي » .
قالوا : نعم . . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انفضوا الى
رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة يا رسول الله والذي
بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيا فئنا ، وما
أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « انا لم
تؤمر بذلك فانفضوا الى رحالكم » .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم ، طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما :
اهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما
ضاقوا بالأمر ذرعا ، شكوا الى رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال لهم : « قد اخبرت
بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن اراد الخروج فليخرج
اليها .

واخذ المسلمون يهاجرون سرا ، بادية عليهم آثار تربية
الرسول ، صلى الله عليه وسلم : من الثقة بالله ، والصبر ،
وتحمل المشاق في سبيل دينهم ، وتوطين النفس على ان
يكونوا في جميع احوالهم : من جنود الله ، مهاجرين اليه
للعمل على اعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .
وما كانت الهجرة قط في نظر الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، ولا في نظر اصحابه ، ركونا الى الدعة والهدوء ، أو
ميلا الى الراحة والسكون ، وانما كانت : محاولة مصممة
على قيادة المعركة في سبيل الله ، من جبهة اخرى .

واخذ المسلمون يهاجرون الى الله ورسوله : يهاجرون
سراً : جماعات أو فرادى ، حتى لم يبق بمكة منهم الا
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعلى ، رضى
الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وعندئذ آن لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ان
يهاجر .

ها هو ذا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على
مشارف مكة ، ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود
إليها مبشرا بدين الله عاملا على أن يعم كل بيت فيها .
ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات
المؤثرة :

« والله ، انك لأحب البلاد إلى نفسي ، ولولا أن أهلك
أخرجوني ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فدخلا . ولما علم
المشركون بالأمر ، ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا
يفلت المهاجران إلى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول : ربى
الله .

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع
مشروع المؤامرة أبو جهل ، وعرضها على الوضع التالي :
أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما ، نهذا ،
جلدا ، ثم نعطيه سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل
واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يستطيع بنوا عبد
مناف الوقوف في وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية ،
فنعطيهما إياها .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » .

دخل رسول الله ، صلوات الله عليه ، هو وأبو بكر

الفار ، مختفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزيناً ، خوفاً على الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهي على لسان الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، يملؤه ثقة وتفאוلاً : « لا تحزن ؛ إن الله معنا » .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الفار ، وأصواتهم الصاخبة ، التي تعلن عن سخطهم ، وغيظهم المكبوت ، قال : لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا ، ويتسم رسول الله ، صلوات الله عليه ، ويقول : « ما ظنك بآئين الله ثالثهما ؟ ! » .

ولما انتهى الطلب ، وعاد المشركون من حيث أتوا ، خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هو ورفيقه ، وكان خروجهما من الفار ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما في الطريق لحق بهما سراقه بن مالك مدججا بالسلاح ، على فرس تسابق الريح ، ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التي وعد بها المشركون من يأتي بالرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قتيلاً أو أسيراً .

فلما دنى منهما ، دعا عليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فرسخت قوائم فرسه ، فقال : يا محمد ، ادع الله إن يطلق فرسي وأرجع عنك وأرد من ورائي ، ففعل ، فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ، صلى

الله عليه وسلم ، فقال : ارجعوا ، فقد استبرأت لكم
ما هاهنا ، وقد عرفتكم بصرى بالأثر ، فرجعوا عنه .
وسار الراكب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل
الى المدينة ، حيث استقبل ب :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالأمير المطاع
وكان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله ،
صلوات الله عليه في المدينة :

١ - بناء المسجد ، المسجد الذي أسس على التقوى
من أول يوم .

٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقاً لمبدأ من
مبادئ الدين الاسلامي ، يتمثل في قوله تعالى :
« انما المؤمنون اخوة » .

ويُحَ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضِ
أَلْفَتَهُ ضَبَابُهَا وَالظُّبَاءُ
وَسَلَّوْهُ وَحَنَ جَذَعُ إِلَيْهِ
وَقَلَّوْهُ وَوَدَّهِ الْغُرَبَاءُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَأَوَاهُ غَارُ
وَحَمَّتْهُ حِمَامَةٌ وَرَقَاءُ
وَكَفَّتْهُ بَنَسَجُهَا عَنكِبُوتُ
مَا كَفَّتْهُ الْحِمَامَةُ الْحَصْدَاءُ

واختفى منهم على قرب مرآ
هـ ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا
قت اليه من مكة الأنحاء

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية . ورمز روحي جميل . يعبر
خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم في كل فترة من
فترات حياته ، بل في كل نفس من أنفاسه . ونريد أن
نتحدث الآن عن الهجرة كرمز : عن الهجرة الروحية ، عن
الهجرة التي لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، والهجرة بهذا المعنى
الذي يتجاوز الواقع التاريخي ويتجاوز الزمان والمكان ، قد
وردت في الأحاديث النبوية الشريفة ، وفي القرآن الكريم .
يقول رسول الله صلوات الله عليه ، فيما رواه البخاري
رضي الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ،
والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحي
نتبينه في وضوح سافر فيما يلي :

يقول الله تعالى :

« ألا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا
ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن
الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ،

وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ،
والله عزيز حكيم » .

في هذه الآية الكريمة : يصور الله ، تعالى ، اخراج
الكفار للرسول ، صلوات الله عليه ، من مكة ، وهجرته
مستخفيا في جنح من الليل مفارقا البلدة التي ولد بها ،
والتي بها عشيرته وقومه ، الى بلدة يجد فيها حرية الدعوة
الى الله ...

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله
تعالى ، يصوره بأنه انتصار في الوقت الذي كان فيه الرسول
صلوات الله عليه مختبئا في الغار هو والصدیق رضوان الله
عليهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم
منتشرون في كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل
بهما .

وما من شك في أن الهجرة كانت انتصارا مبينا : لأنها
فرار الى الله ، والفرار الى الله انتصار ، حتى ولو انتهى
بالموت أو القتل . « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا
أو ماتوا ، ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير
الرازقين » .

ونحن مأمورون بالفرار الى الله ، أي بالهجرة اليه ،
« ففروا الى الله ، اني لكم منه نذير مبين » ، وسيدنا
ابراهيم عليه السلام قال : « اني مهاجر الى ربي انه
هو العزيز الحكيم » . وقال : « اني ذاهب الى ربي سيهدين »

والفرار الى الله والهجرة اليه والذهاب اليه من صفات المؤمنين الصادقين : انهم يفرون الى الله ويهاجرون اليه يوميا : فهو هدفهم وغايتهم في جميع اعمالهم ، واذا كانت هجرة بعض الناس انما هي الى دنيا يصيبها ، او الى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده . متمحضة لوجهه الكريم ، واذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول ، صلوات الله عليه للصدیق : « لا تحزن ان الله معنا » ذلك ان هجرتهم كانت لله رب العالمين ، لا شريك له . ومن كان كذلك فان الله ينزل عليه السكينة ، اى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الاعين : فيدخله في نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادىء البال سعيدا ولو ألقى في النار لانه سوف لا يشعر بها ، الا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة اليه تعالى .
وأول مرحلة في سبيل الهجرة اليه سبحانه انما هي النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله عليه : « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فاذا ما توجهت النية بالأعمال الى الله تعالى كانى الأعمال هجرة اليه ، اما اذا لم تتوجه النية اليه ، فان

الأعمال ، ولو كانت خيرا في ظاهرها ، تكون هباء منثورا ، ومن
عنا يتبين المؤمنون حقا فساد الافكار التي يروجها الحائدون
عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : ان العلم للعلم ،
او الفن للفن ، او الخير للخير ، او الخير لأرضاء الضمير . ان
كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية
الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع لأن العلم والفن
إذا لم يتجه بهما أصحابهما الى الله أسسا وغايات انحرفت
بهما الإرادات والنيات الى الشر والافساد : فشقت بهما
الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فان معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى الا عن
طريق الدين وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين -
تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل الى نتائج .
والمؤمن اذن يهاجر الى الله بعلمه ، ويهاجر اليه بفنه ،
ويهاجر اليه بعمله الخير .

على ان العبادات الاسلامية على تعددها واختلافها ،
انما هي تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة الى الله
تسمو بالمؤمن صعودا الى الصلوة بالله ، وإلى النعيم في
رضوانه ، وإلى السعادة في رحابه : فالصلاة فرار من البيئة
والجو والمادة الى الوقوف بين يدي الله ومناجاته - لحظة من
الزمن - فهي هجرة الى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربا الى الله فهي
ذهاب اليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس
وقربى الى الله فهو ذهاب اليه .

أما مناسك الحج فأنها صور من التجرد لله بلفت النروة
والسنام ، وتبلورت في النداء الروحي الكريم « لبيك اللهم
لبيك » .

وختاما فان الصورة التامة الكاملة للهجرة الاسلامية
الكبرى ، انما تتمثل في أروع مظاهرها في قوله تعالى :
« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب
العالمين ، لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين » .
يقول صلوات الله عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن
جهاد ونية » جهاد في كل ميادين الجهاد ونية خالصة
طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فالى هذه الهجرة الكبرى أيها الاخوة المؤمنون فان فيها
الخير كله .

وبالله لتوفيق ..

الجهاد

أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام : هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو : مات على شعبة من النفاق » .

ان النبى العابد ، هو : النبى المكافح ؛ وان نبى الرحمة ، هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الاسلام ، الا فى سبيل الله ، فاذا ما خرج عن سبيل الله : لم يكن اسلاميا ، وكل ما فى سبيل الله : انما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردا وترتيباً وتفصيلاً ، وانما نذكر منها عبراً ، حتى ننتهى الى فتح مكة .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون والصناديد : من المهاجرين والأنصار : يفرون أحياناً ، ولكنه ، صلوات الله عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات : لا يتزعزع عن موقفه ،

ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت في مكانه في غزوة أحد التي غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون ، بكل ما استطاعوا ، أن يقضوا عليه ، صلوات الله عليه .

ووقف ثابتاً في غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم اذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل في الوجود أن يفر وأن يتراجع ، وهو أوثق الناس بالله وبرسالته؟! ولقد كان واضحاً فيه ، صلوات الله عليه : ما يقوله سيدنا على وهو من هو - بطولة وفروسية - : « كنا اذا حمى الوطيس : أى الحرب : اتقينا برسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أى احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا الى العدو » .

وكان ، صلوات الله عليه ، مع التجائه الى الله تعالى : يدعو ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر : يحكم الأمر احكاماً ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره في جميع أموره ، لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيماً محكماً ، ثم اتجه الى الله يدعو ، وكان دائماً متفائلاً : كان متفائلاً ، حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون في غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بأذن الله .

وكان انهزام المسلمين في غزوة أحد : شروفاً في القاعدة ، وما كان ذلك الا لأنهم خالفوا - متأولين - أوامر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، غير أن تفاؤله ، صلوات

الله عليه : لم يفارقه لحظة ؛ اذ انه بعد أن انهزم المسلمون في غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله عليه ، بلم شعثهم ، وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورا ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله ، صلوات الله عليه ، أنه في غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ؛ يسانده اليهود والغادرون ؛ ليقضوا على الإسلام في المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا ، وقد كان المسلمون : يعملون في حفر الخندق حماية لهم ، ومنعا من وصول العدو اليهم في هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب ، رضى الله عنه : القصة التالية ، حسبما رواه الإمام أحمد :

« أمرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، فشكونا الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فجاء ثم هبط الى الصخرة ، فأخذ المعول ، وقال : بسم الله ، ف ضرب ضربة ، فكسر ثلث الحجر . وقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله انى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله انى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية

الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله انى
لأبصر ابواب صنعاء من مكانى هذا .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين وان
كان قد دعا الى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين
قالوا : ان محمدا يعبدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على
انفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط
فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر الى نهاية حياته
الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، انا فتحنا لك فتحا مبينا ،
ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته
عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا
عزيزا » .

ان آيات الفتح هذه - نزلت فى أثناء عودة رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة ، بعد صلح الحديبية ،
نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة
حاجين ومعتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، وقد نزلت
تشير الى فتح مكة وتبشر به . ولقد أوحاها الله الى رسوله
ليلا ، فلما أصبح صلوات الله عليه قال : لقد نزلت على
الليلة سورة : هى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ، ثم
قرأ قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادی حربى وانما هى تشير - على الخصوص - الى الآفاق العليا من الرضوان الالهى . انها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ؛ والتى سمت بالرسول ، صلوات الله عليه ، الى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

انها : بشرى من الله بفتح مبین ، وغفران شامل ، واتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز . وهذه منح الهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وانما تفسر ايضا ، ومن باب أولى ، بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الالهية - اللهم لك الحمد والشكر - ولذلك فاننا ، حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وانما الذى يحتل ذلك انما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى ، الممثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى الى الانسانية ، أى فى سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه .

ومهما يكن من شىء ، فان قريشا ، نقضت عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله ، صلوات الله عليه ، وكانت الفرصة مواتية ، لأن يركز الله تفكير رسوله صلى الله عليه وسلم فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحدده ، ولا
تشرك به شيئاً ؟ !

« أن الشرك لظلم عظيم » .

أما آن لقلوبهم ، أن تخشع لذكر الله وما نزل من
الحق . ؟ !

لقد دعا سيدنا إبراهيم - في رحاب مكة - ربه مبتهلاً
ضارعاً قائلاً :

« ربنا ، وأبعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ،
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم »
وها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد بعثه
الله اليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى
السما ؟ !

وهذا البيت العتيق ، الذى رفع قواعده إبراهيم
واسماعيل قائلين : « ربنا تقبل منا انك انت السميع
العليم » . هذا البيت الذى عهد الله لإبراهيم واسماعيل ،
أن يطهراه للطائفين والعاكفين ، والركع السجود . هذا
البيت : قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على
جوانبه معلنة - فى وقاحة سافرة - الشرك بالله .
لأبد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لأبد من أن
تسلم قريش وجهها الى الله .

وصمم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزم لا يلين
على أن يمحوا الشرك وآثاره من معقله الحصين : (أعنى مكة)

وأن يظهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود . وعبثا حاول أبو سفيان - الذي أرسلته قريش سفيرا بينها وبين الرسول - أن يجدد العهد الذي نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان - رغم دهائه ولباقته - عونا من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ، التي بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يجلس عليه أبوها - زعيم المشركين وحامي الشرك في مكة - فلما سألها مستفسرا أرغبت به عن الفراش أم رغبت بالفراش عنه ، قالت هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مغضبا قائلا : « والله لقد أصابك من بهدى شر » وأخطأ أبو سفيان ، فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

وعبأ رسول الله صلوات الله عليه ، القوى وخرج يوم الأربعاء ، بعد العصر ، لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا كان بالكديد ، واجتمع الناس إليه ، أخذ اناء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس ، من قبل الرخصة ، فإن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قبلها ، ومن صام فإن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : صام .

حتى إذا بلغ صلوات الله عليه « مر الظهران » - وهو مكان بالقرب من مكة - أمر الجيش بالأفطار ، لأنه ، فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والايان . وعسكر الجيش في مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان

وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال ، بعقليته الجاهلية ،
للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ،
فقال العباس ، بعقليته الإسلامية : ويحك ! أنه ليس بملك ،
ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان ، فنعم ، وتوجه رسول الله
نحو مكة محذرا من اراقة الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة ،
وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل
الحرمة » . عزله النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقد كان
رسول الله صلوات الله عليه يريد أن يكون اليوم يوم
المرحمة .

ودخل رسول الله ، صلوات الله عليه ، مكة دون مشقة ،
وكان أول ما فعل ، أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل البيت ،
فراى فيه صور الملائكة بهيأة النساء ، ورأى ابراهيم ، عليه
السلام ، مصورا في يده الأزام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم
الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن ابراهيم
والأزلام ؟ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا
مسلميا ، وما كان من المشركين » .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه الى الأصنام ، فحطمها
مرددا قوله تعالى :

« جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » .
واذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قد حطم
الأصنام المادية ، فانه ، من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد

حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ،
والهوى شرك ، والخضوع للشبهوات شرك ، وكل عمل
لا يقصد الإنسان به وجه الله ، فانما هو من أعمال الشرك .
وفي هذا اليوم تملك أريحية العفو رسول الله ، صلوات الله
عليه :

فانه ، حينما اجتمعت قريش اليه ، نظر اليهم وقال :
يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا ،
أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال وهو يبكي : « اذهبوا فأنتم
الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لأخوته :
« لا تريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين » .

فكان هذا اليوم حقا يوم المرحمة .
وبالله التوفيق .

النبي العابد

ألف النيك والعبادة والظلة طفلا وهكذا النجباء
واذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

ان أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هي :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، ولقد كانت هذه الآية
الكريمة - بوضعها ، ومفهومها ، وجوها - شعاعاً عاماً
وتوجيهاً شاملاً ، فما كانت تعنى ، بروحها ، القسراءة
فحسب ، وإنما كانت تعنى : أنه - منذ هذه اللحظة - يجب
أن يكون كل أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركاً .
ولقد تأكد هذا الاتجاه ، وأصبح سافراً فيما بعد ، بل
لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى
لرسوله ، صلى الله عليه وسلم :

« قل : ان صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ومماتي لله رب
العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .
على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ، إذا كان يتأتى
الشمول والعموم بعد هذا .

ان الله سبحانه قد أخبر في قرآنه الكريم : أنه ما خلق

الجن والانس الا للعبادة ، يقول سبحانه :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التي يجب ان يعمل الانسان على تحقيقها اذن انما هي : العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة :

« اقم الصلاة لادائك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقل : رب ادخلني مدخل صدق ، واخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » .

« واسجد واقترب » .

« واعبد ربك حتى ياتيک اليقين » .

« واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه ، وادبار النجوم » .
وما من شك في ان الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ، انه سبحانه الغنى المطلق ، والمانع المطلق ، والمعطى المطلق ، انه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغنى ، انه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج . .

وما كانت العبادة الا لاجل تكميل الانسان ، فمن فضل الله على عباده : ان فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، انها راجعة اليه في الدنيا ، وراجعة

اليه في الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - :
فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون » .

ومن عناية الله بالامة الإسلامية ، وبرسوله الكريم : أن
أول كلمات من الوحي : كانت توجيهاً للرسول وللمسلمين :
بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ؛ لأن ما كان باسم الله كان عبادة ،
ولو كان أكلا أو شربا مثلاً .

واستجاب الرسول ، صلوات الله عليه ، لهذا التوجيه
السامى ، الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر
طيلة الوحي .

ان الرسول ، صلوات الله عليه ، حينما فاجأه الوحي ،
فعاد يرجف فؤاده الى منزله الطاهر ، وقال : زمّلونى
زمّلونى : نزل عليه قوله تعالى :

« يا أيها المزمّل ، قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص
منه قليلا ، أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا » .

لم يقل له سبحانه : يا أيها المزمّل لا تخش بأسا ، أو
يا أيها المزمّل ، لا ترع ، فان ذلك من عند الله . وإنما كان الرد
على رجفة الفؤاد : أمرا بالعبادة .

وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق
أو كرب : أمر بالعبادة ، مثل :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع

الشمس وقبل غروبها ، ومن آتاء الليل فصبح ، وأطراف
النهار ، لعلك ترضى .

وهنا علق ، سبحانه ، الرضى ، وطمانينة النفس ،
وسكينة القواد : على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ؛ ويشير
الله الى ذلك ايضا فيقول :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل
طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار
السجود » .

واستجاب الرسول ، صلوات الله عليه ، استجابة كاملة ،
للتوجيه الالهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ اذ أنه
كان يعملها بسم الله : لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل
حياته بأكملها ، بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل
كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه
ويقظته ، بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه ، فكان ذلك
توجهها به الى الله فكان عبادة له ، وهذه الاستجابة الكاملة
هى التى جعلت من رسول الله ، صلوات الله عليه : أول
المسلمين .

أولهم منذ أن خلق الله العالم الى أن يطوى الله الأرض
وما عليها ، باعتبار أن الدين عند الله - منذ الازل الى
الأبد - : إنما هو الاسلام .

لقد صير الرسول ، صلوات الله عليه ، الحياة كلها عبادة
لا تفتقر .

وإذا ما استحوالت الى عبادة ، فقد استحوالت الى قوة ،
أرأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ،
ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش
عبادة ، ومن ، ومن . . . هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ،
وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟ .
مهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول ، صلوات
الله عليه ، استجابة تامة لما أراد الله ، سبحانه وتعالى ، ولقد
تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكرا لها ، فقال سبحانه :
« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ونصفه ،
وثلثه » .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب
من حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، ومن وراء ايضاح هذا
الجانب من حياته ، صلوات الله عليه ، أهداف :
١ - تأسي المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية
النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد
يعادل ، في نفاسته العبادة ، والنصيحة المجربة التي تؤسدى
لشاك انما هي « صل » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب
النفسى أياً كان .

ومتى وجدت النفس المطمئنة - والنفس المطمئنة
لا وسيلة لوجودها الا بالعبادة فان الكثير من الأمراض

الجسمية نفسها يزول باقرار اطباء الأجسام أنفسهم ،
ثم انه - باقرار اطباء الأجسام أيضا - لا يكون الانسان
المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

٣ - وهذه الاسوة بالرسول ، صلوات الله عليه ، التي
نرجوها : ستكون أيضا سببا في تفريج الضيق المادي :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات
من السماء والأرض . . . » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن : فلنجزيه
حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .
وهذه الأحاديث التي نذكرها لا يوجد فيها حديث
ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل
الأعمال ، فانا قد تحررنا تحريا كاملا أن لا نذكر فيما يلي -
الى آخر الكتاب - حديثا ضعيفا .

الصلوة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن النبي صلى الله
عليه وسلم ، كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .
فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر
الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ !

قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟ » .

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

« صليت مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة فاطال
القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ؟

قال : هممت أن أجلس وأدعه .

ولعل لابن مسعود ، رضى الله عنه عذره ؛ فقد كان
صلوات الله عليه يقرأ في الركعة الأولى مثلاً : سورة البقرة ،
وفي الثانية آل عمران ، وفي الثالثة سورة النساء ، وكان
يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل
كل ذلك ، حينما كان يفعله منفرداً في جوف الليل .
أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف .

وقد ورد في السنّة الصحيحة : إطالة الرسول ،
صلوات الله عليه القراءة في الركعات التي يصلّيها في الليل ،
وبسبب هذه الإطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى
عشرة ركعة .

« عن عائشة ، رضى الله عنها : كان النبي ، صلى الله
عليه وسلم : يصلّي من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع
الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن
حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » .

وكان الرسول ، صلوات الله عليه : يستغرق في صلاته
الليالية ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

« أتيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي ،
ولجوفه أذير كأذير الرجل ، يعني يبكي » .
والصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول ، صلوات الله
عليه بقوله :

« أن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .
وكان ، صلوات الله عليه ، يتوضأ لكل صلاة .
عن أنس ، رضي الله عنه ، قال :

« كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يتوضأ لكل
صلاة . قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزي أحدنا
الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول ، صلوات
الله عليه ، في الصلاة :

كان عند الإقامة يقول :

« أقامها الله وأدامها » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم ، إذا قام إلى الصلاة
طأطأ رأسه » .

« قالت عائشة ، رضي الله عنها : « لم يكن ، صلى الله
عليه وسلم ، على شيء من الثوافل أشد تعاهدا منه على
ركعتي الفجر » .

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة : أكنت
تجالس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، كثيراً
كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي منه الصبح حتى تطلع
الشمس فإذا طلعت قام » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم : يدخل في الصلاة ، فريد اطالتها ، فيسمع بكاء الصبي ، فيتجوز في صلاته مخافة أن يشق على أمه » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم : يقرأ بسورة « الجمعة » في الركعة الأولى و « باذا جاءك المنافقون في الثانية » .
عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرأ في المغرب بالطور » .

« وكان ، صلوات الله عليه ، يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفا ، وانها لآخر ما سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » .

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت ق ، والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس .
« كان ، صلوات الله عليه ، يقرأ في صبح الجمعة : « الم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » رواه الشيخان من حديث أبي هريرة ، وانما كان يقرؤها كاملتين وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان ، صلى الله عليه وسلم ، يقرأ في العيدين وفي الجمعة : « بسم اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الفاشية » .

« وكان » يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » .

« وكان ، صلوات الله عليه ، يقول بين التشهد والتسليم :
اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،
وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت
المؤخر ، لا اله الا أنت » .

« وفي السجود يقول ، صلوات الله عليه : اللهم اني أعوذ
برضائك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك
منك ، لا احصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .
« وعن حذيفة ، كان يقول ، صلى الله عليه وسلم ، في
ركوعه : سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده : سبحان ربي
الأعلى » .

« وعن عائشة ، رضى الله عنها : كان ، صلى الله عليه
وسلم ، يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم
وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن » رواه مسلم ، ومعنى
يتأول القرآن يعمل بما أمر به كما في قوله تعالى : « فسبح
بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » فكان ، صلى الله
عليه وسلم ، يقول هذا الكلام البديع في الجزالة ، المستوفي
ما أمر به في الآية » .

الصيام

أما اذا جئنا الى رمضان ، وإلى الصيام ، على وجه
العموم ، فالأحاديث التالية ، توضح بعض الأمر : كما أن
أحاديث الصلاة التي رويناهما : إنما بينت اشارات ولمحات
فقط ، فكذلك الأمر في أحاديث الصيام .

فرض رمضان في السنة التالية من الهجرة ، فتوفي سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد صام تسع رمضانات .

عن عائشة ، رضي الله عنها : « كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : اذا دخل العشر الاواخر من رمضان ، احيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجد ، وشد المنزر » .

وعنها ، قالت : « كان ، صلى الله عليه وسلم ، يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وفي العشر الاخير ما لا يجتهد في غيره » .

« كان يعتكف العشر الاواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، تعالى » .

« كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما » .

« اذا دخل العشر الاخير طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتسل بين الاذنين ، وجعل العشاء سحورا » .

« روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ، صلوات الله عليه ، واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يواصلوا ، قالوا : انك تواصل ، قال : لست كهيئتكم اني اظل أطعم وأسقي » .

عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : « كان رسول

الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر ، وهي ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة .
وعن حفصة ، رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يدعهن : صيام عاشوراء ، والعشر - أى تسع ذى الحجة - والأيام البيض من كل شهر ، وركعتا الفجر » .

« كان ، صلوات الله عليه ، يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس » .
« كان النبي ، صلوات الله عليه ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر » .

ومن العبادة : الذكر

« لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : « كان ، صلوات الله عليه ، يذكر الله على كل أحيانه » .
« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثل الحى والميت » .

وأفضل الذكر : قراءة القرآن .
« ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : أَلَمْ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« ان الذى ليس فيه فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الحرب » .

« اقرءوا القرآن ، فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .
وبينما جبريل ، عليه السلام ، قاعد عند النبى ، صلى الله عليه وسلم ، سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط الا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط الا اليوم ، فسلم ، وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤت هما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته » .

ولأن لا اله الا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى : قال ، صلوات الله عليه :

« أفضل الذكر لا اله الا الله » .

عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟! » .
فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : لا حول ولا قوة الا بالله » .

« قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لقيت ابراهيم ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد ، أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

« وكان ، صلى الله عليه وسلم ، يقول بأعلى صوته .
لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو
على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ،
ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن
الجميل ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .
« من قال لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك
وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة : كانت
له عِدْلٌ عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت
عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك
حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل
اكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة :
حطت خطاياہ وان كانت مثل زبد البحر » .

« اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله
وعند طعامه : قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ،
فاذا دخل فلم يذكر الله تعالى ، عند دخوله : قال الشيطان :
ادركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى ، عند طعامه : قال :
ادركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور : شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ،
وسبحان الله والحمد لله : تملآن أو تملأ ما بين السموات
والارض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر :
ضياء ، والقرآن : حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو :
فيبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

« ان أحب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » .
« لان أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ،
والله أكبر : أحب الىّ مما طلعت عليه الشمس » .
« كلمتان : خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ،
حبیبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله
العظیم » ...

الدعاء

وقال ، صلوات الله عليه وسلامه : « الدعاء هو العبادة » .
أما أحسن أوقات الدعاء فان الأحاديث التالية تذكر
بعضها :

« أقرب ما يكون العبد من ربه : وهو ساجد فأكثروا
الدعاء ، فقمّن أن يستجاب لكم » .
« قيل لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أي الدعاء
أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة »
« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ،
وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل
به : آمين ، ولك بمثل » .

« لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع باثم أو قطيعة
رحم ، ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟
قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت فلم أر يستجيب لي ،
فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة إلا أتاه الله أياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : أذن تكسر ، قال : الله أكثر » .

« كان ، صلى الله عليه وسلم ، يحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سوى ذلك » .

ومن جوامع دعائه ما يلي :

« أتاه رجل ، فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربى ؟! »

قال : قل : اللهم اغفر لي وارحمني ، وعافني ، وارزقني ، فان هؤلاء : تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم اني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل اثم ، والفنينة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبي أمامة ، رضى الله عنه ، قال : دعا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا . قلت : يا رسول الله ، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا .

فقال : ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟! تقول : اللهم انا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ، صلى الله عليه وسلم

وانت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة الا بك « أه .

« اللهم انى اعوذ بك ، من منكرات الأخلاق ، والاعمال ، والأهواء .

« اللهم ألهمنى رشدى ، وأعدنى من شر نفسى .

عن شهر بن حوشب ، قال : « قلت لأم سلمة ، رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اذ كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك « أه .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنيائى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى اليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والموت راحة لى من كل شر .

« اللهم مصرف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك .

« اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

ومن أدعيته ، صلوات الله عليه فى الصلاة :

« عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أنه قال لرسول

الله ، صلى الله عليه وسلم : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى .
قال : قل : اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر
الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ،
انك أنت الغفور الرحيم » .

« وكان صلوات الله عليه يقول بين السجدين : اللهم
اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » .
عن معاذ ، رضى الله عنه ، أن الرسول ، صلى الله عليه
وسلم ، أخذ بيده وقال : يا معاذ والله ، انى لأحبك ، ثم
أوصيك : يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة : أن تقول : اللهم
أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .
وعند الإفطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت »
« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ،
انك أنت السميع العليم » .
عند الكرب :

« يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » .
وعند الكرب ، أيضا :

« لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله رب السموات
 ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما اذا كان الكرب شديدا فيحسن أن يكرر الانسان
دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف
وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم ، اليك أشكو

ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس ، يا أرحم
الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى اللى من تكلنى ،
الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ان لم يكن بك
على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ
بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلى عليه أمر الدنيا
والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك
العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

واذا خاف قوما قال : « اللهم انا نجعلك فى نحورهم
ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« ألا أعلمك كلمات علمتنيهن رسول الله صلى الله عليه
وسلم لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك ؟ قل اللهم
اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك » .
وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم من قال اذا خرج من بيته : بسم الله ، توكلت
على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له هديت وكفيت
ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

وعند النوم واليقظة :

« اذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت
خده ثم يقول اللهم باسمك أموت وأحيا . واذا استيقظ
قال الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » .

وعند الأكل :

« الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول

منى ولا قوة » .

وعند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير

ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وإذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ،

ربى وربك الله هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد إلا اله إلا أنت ،

استغفرك وأتوب إليك » .

وعندما يودع شخصا :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا فيقول :

استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » .

ومن العبادة ((الصلاة على النبى))

والصلاة عليه أمر بها الله سبحانه فى كتابه فقال :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين

آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . والصلاة على النبى

تكون بأية صيغة ، وكل الصيغ فى الصلاة عليه مباركة ،

والمأثور منها هى الصيغة التى فى التحيات ،

والذكر بالصلاة على الرسول صلوات الله عليه ثماره
شتى ، وقوائده عدة ، فضلا عن العبادة نفسها . ونذكر
من هذه الصيغ صيغتين الأولى منهما للخروج من الضيق ،
ولتيسير المعسر ، وللخروج من الشدة ، وللفرج على جميع
أنحائه وللوصول إلى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله
المغفور له الشيخ أحمد أبو هاشم وهي ما يلي :

اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرؤوف
الرحيم الذي أخبر عن ربه الكريم : أن الله تعالى في كل
نفس مائة ألف فرج قريب ، وسلم .

أما الثانية : فأننا نسميها الصيغة التجريدية لأنها
لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهي قياس موفق على
ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر بـ « سبحان الله
وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد
كلماته » . والصيغة هي ما يلي :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد
عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد
كلماتك » . وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير
العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضي صاحب الضريح
المبارك في شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو في رؤية منامية ، وهي صيغة مباركة ،
وانا فنصح بتكرارها كلما أتبع للانسان ذلك .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

من هديه ، صلوات الله عليه ، في سبب بعثته .

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

« بعثت بالحنيفية السمحة » اهـ .

أما هو صلوات الله عليه فانه رحمة مهداة الى العالم .

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أني رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع

آخرين » . رفع من اتبعوه عند الله ووضع أمثال أبي جهل

وأتباعه من المشركين والملحدين ، وضربهم عند الله وفي

ميزان التقوى . . على أنه :

« ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة

من حسن الخلق ، وإن الله يفيض الفاحش البديء » .

والأخلاق لا وزن لها بدون الأخلاص ، ومن هديه صلوات

الله عليه في ذلك : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ

ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى

الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة

ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه .

« ان الله لا ينظر الى اجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن
ينظر الى قلوبكم » .

« دِع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ،
والكذب ريبة » . قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها ،
ومعناه : اترك ما تشك في حله واعدل الى ما لا تشك فيه «
ان اول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد
فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها .
قال فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .
قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد
قيل ، ثم امر به فسيحب على وجهه حتى ألقي في النار .
ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه
نعمه ، فعرفها ؛ قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .
قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت
القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على
وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى
به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟
قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت
فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد
قيل ، ثم أمر به فسيحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ومن هديه في موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان .

ومن المنكر : السبع الموبقات :

اجتنبوا السبع الموبقات .

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟

قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الفافلات » متفق عليه .
الموبقات : المهلكات .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »
« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا
الا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .
« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم :
كمثل الجسد : اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء
بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن : كالبنيان : يشد بعضه بعضا » .
« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه ، وماله »
« عن أبي بكر ، رضى الله عنه : أن رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، قال : في خطبته يوم النحر بمنى ، في حجة

الودائع أن أموالكم ، وأعراضكم ، ودماءكم : حرام عليكم
كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلا
هل بلغت ؟ » .

« سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر » .

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار

قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

« المسلم أخو المسلم : لا يخنونه ، ولا يكذبونه ، ولا يخذله ؛

كل المسلم على المسلم : حرام : عرضه ، وماله ، ودمه ؛ التقوى

ههنا ، بحسب امرئ من الشر : أن يحقر أخاه المسلم ! » .

« المسلم : أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يسلطه ، ومن كان

في حاجة أخيه : كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم

كربة ؛ فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر

مسلمًا : ستره الله يوم القيامة » .

« المسلم : من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر

من هجر ما نهى الله عنه » .

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله

عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر : يسر

الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في

الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما : سهل الله له به

طريقا إلى الجنة .

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده .
« ومن بطأ به عمله : لم يسرع نسبه » ، اهـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة : فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : اذا أتيت معسرا فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه » .

عن أبي هريرة ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم :
« أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال : فاني رسول الله اليك : بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل ، يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ !

قال : أما علمت أن عبيد فلانا : مرض فلم تعده ؟ ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ ! .

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ! قال : يا رب ،

كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟!

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ! قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ! أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟! .
ومن هديه ، صلوات الله عليه ، في العلم :

« من سلك طريقا يتغى فيه علما : سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الجيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد : كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء : لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

« من خرج في طلب العلم : فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذي محرم » .

فقال له رجل : يا رسول الله ، ان امرأتى : خرجت حاجة ، واني كتبت في غزوة كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك » .

« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذي محرم » .

ومن هديه ، صلوات الله عليه ، في الجهاد :

عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ،
صلى الله عليه وسلم ، قال : « أفضل الجهاد : كلمة عدل
عند سلطان جائر » .

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه
بالغزو : مات على شعبة من النفاق » .

« قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن
خرج في سبيله ، لا يخرج به الا جهاد في سبيلى ، وإيمان بى
وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى
منزله الذى خرج منه بما نال من اجر وغنيمة ، والذى
نفس محمد بيده ، ما من كُلم يكلم في سبيل الله الا جاء
يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحه : ريح
مسك ، والذى نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين
ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد
سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا
عنى ، والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل
الله ، فأقتل ؛ ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » . والكلم :
الجرح .

خاتمة

في مقام الرسول « صلى الله عليه وسلم » في الآخرة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما - قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك ؟ ! يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟! فيقول بعض الناس لبعض أبوكم آدم ، فيأتونه : فيقولون يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا ؟! فقال : إن ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي . . نفسي . . نفسي ؛ اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما بلغنا ؟!

الا تشفع لنا الى ربك؟! فيقول : ان ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومي نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون : يا ابراهيم انت نبى الله وخليله من اهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟! فيقول لهم : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانى كذبت ثلاث كذبات ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى ، فيقولون : يا موسى انت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟! فيقول : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانى قد قتلت نفسا لم أوامر بقتلها ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى انت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه؟! فيقول عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية : « فيأتونى ، فيقولون : يا محمد انت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ،

اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟! فأنطلق فأتى تحت
 العرش فأقع ساجدا لربي ، ثم يفتح الله على من محامده
 وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتححه على أحد قبلى ثم يقال :
 يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى
 فأقول : أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، فيقال :
 يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب
 الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك
 من الأبواب . ثم قال : والذي نفسى بيده ، ان ما بين
 المصراعين من مصاريع الجنة : كما بين مكة وهجر أو كما بين
 مكة وبصرى .

وبعد فانا نختم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة
 التالية :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم : يتلو عليهم
 آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وان كانوا من
 قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو
 العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو
 الفضل العظيم » .

أهم المراجع

- | | |
|-------------------|--------------------------------|
| • طبقات ابن سعد . | • صحيح البخارى . |
| • سيرة ابن هشام . | • صحيح مسلم . |
| • رياض الصالحين . | • الأنوار المحمدية للنبيهانى . |

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحققت
- اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته
- مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان
- المعرفة بأفلام أساتذة ومتخصصين
- ويقرئين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر
- في أوله وفي منتصفه

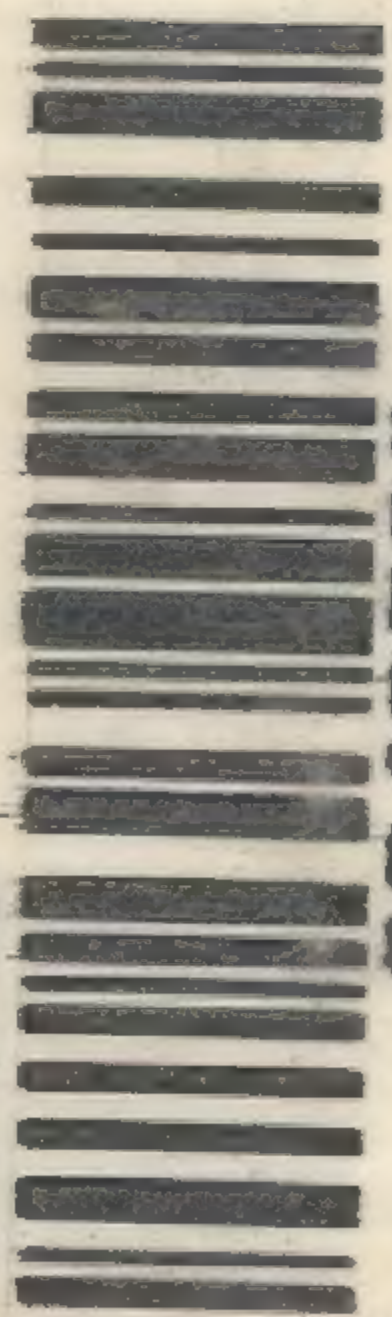
الكتاب القادم

خيال الظل

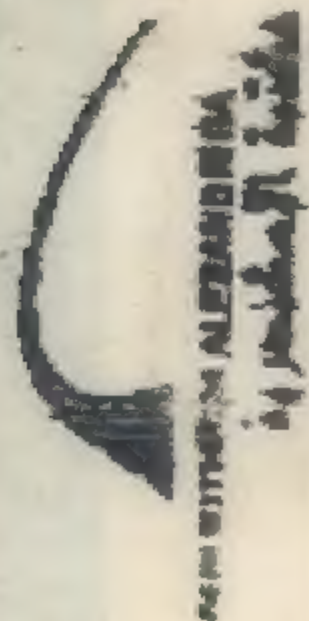
الدكتور عبد الحميد يونس

١ أغسطس ١٩٦٥

Bibliotheca Alexandrina



0242580



دار مصر للطباعة

الجزء ٢

مكتبة مصر